أعلام العرب
٦٢



الجاحظ

تأليف

الدكتور أحمد كمال زكى

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

مقدمة

فى أحد أيام المحرم من عام ٢٥٥ / ديسمبر سنة ٨٦٨ أعلنت وفاة أبى عثمان الجاحظ فى البصرة ، وحمل النبأ الى المعتز بالله خليفة بغداد فصرخ فى جزع « لقد كنت أحب أن أشخصه الى وأن يقيم عندى ! » فقال أحد جالسيه : « انه كان قبل موته عطلا بالفالج » .

ولقد كان الخليفة يعلم ذلك من غير شك ، غير أنه أبى الا أن يعلن عن أمنية طالما تمناها سلفه ، منذ أن أفلح المأمون فى ضم هذا الكاتب العظيم الى ديوان رسائله ، وان لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام ودع بعدها العمل الرسمى ، دون أن يودع رجاله ، حتى استطاع أن يصاحب الجميع على اختلاف المشارب وتعقد الأهواء .

ان تلك الأمنية يمكن أن تقفنا بيسر على كنه الطبيعة الفذة التى سجلت للجاحظ آثارا فكرية وفنية ، لا تزال الى اليوم موضع عناية المتأدبين والمجتمعيين .. لا من حيث انها مرحلة تاريخية من مراحل تراثنا العربى ، ولكن من حيث انها نتاج انسانى يكفى أنه نبه على فساد أوضاع حاولت ثورة الزنج (٢٦ رمضان سنة ٢٥٥ / ٥ أغسطس سنة ٨٦٩) أن تقوم منها ما قدرت على التقويم وفهمته .

وربما بدت المغالاة فى تلك القالة ، الا أن من يقرأ « كتاب البخلاء » الذى وضعه الجاحظ فى آخر أيامه ، الى جانب بعض رسائله التى ترتفع أحيانا الى مستوى الكتب النادرة ، يلحظ أن « صاحب الزنج » أو قائد الثورة كان ينطلق فى الواقع من حيث انتهى « صاحب البخلاء » .

فثمة ضغط واستعلاء ، وأموال وثراء . وتباه وقبض يد ، من جانب السادة الذين أثروا نتيجة تحول المجتمع الاسلامى — فى القرن الثالث الهجرى — من طور الزراعة الى طور التجارة ، وثمة عامة وسفلة ، ورعاع وعبيد ، ينفسون ويحقدون ويحسدون ، ويريدون القوت والعمل والانطلاق .

وهناك علة سياسية تنخر فى عظام الخلافة الهاشمية اسمها « الترك » أطاحت فى عجل — بعد حكم المتوكل — بالمنتصر والمستعين والمعتز ، غير أنها كانت تعمل دائما على أن يكون هناك الغش والرشوة والكذب والنفج والنفاق . لكن بعض هذه أو كلها من الصفات التى يمكن أن تشيع فى الطبقة التى أثرت ، وهذه أشبه ما تكون بكل طبقة بورجوازية — وعذرا عن استخدام هذه التسمية المحدثة — تطل برأسها ، وتريد أن تثبت أقدامها على الأرض .

وهناك تحزب من جانب الأعاجم ، وتعصب من جانب العرب ، وصراع بين الأفكار ، وجواذب كلامية ، ومناقشات سوفسطائية . وكلها تذوب فيما يكتب الجاحظ ويبعث به الى أقاصى الشرق

والغرب ، فيعمل عمله فى اثارة الآراء وحفز الهمم وحشد الجهود للتقصى والمتابعة .

ان الجاحظ لا يظل الكاتب الانسانى للعرب أو للمسلمين فحسب ، ولكن فى وسعنا أن نزعم أنه أسهم أيضا فى تكوين هؤلاء . فلعله أعطى بعض الأبعاد الجديدة للكثير من قضاياهم الأخلاقية ، حتى اننا لنجرؤ فنقول : انه أفاض من سخريته وذكائه عليهم شيئا ربطهم به — دون أن يشعروا — الى الأبد .

وعلى الرغم من أنه يعترف بفضل واحد كابن المقفع وآخر كسهل بن هارون — وكلاهما عربى اللسان فارسى الدم — فالشيء الذى لا شك فيه أنه خرج بالنثر العربى من حدوده الكلاسيكية الى حيث يصبح ظاهرة اجتماعية عاشت كما ينبغى أن تعيش كل ظاهرة متفاعلة .

وكم كان خليقا بمن تبعه أن ينحو نحوه ، فيعكف على الحياة دون الاكتفاء بنقل الموروث — عن طريق الرواية — ويرصدها ذكريات وتجارب ونظرا ومحاولة فهم وتفلسفا !

وانه هو ليسجل ملحوظاته الأولى مبتدئا بمرحلة تعليمه فى الكُتَّاب ، وهى الحقبة التى كانت فيها الحياة البصرية تؤذن بالتحول الى بغداد ، واستطاع الحمراء أو الموالى أو أحرار الموالى الفرس — ويسمون الآزادمردية — أن يتولوا أمور الحكم ويبسطوا سلطانهم فى القصر والمسجد والسوق ومجلس المناظرة ، وقد شاهد مواكب العجم وهى تتوقف أمام قصور البصرة ، وعلى

ضفاف أنهارها الكثيرة ، ورأى انطواء العربى عـلى نفسه فى اقطاعيته التى كان العبيد يتناقصون فيها يوما بعد يوم ، وباع هو نفسه أحقر السلع فى سوق القصارين وسوق الدباغين وفى الكلاء والفرضة ، وشاهد العوائين والمكدين وسمع الى اللصـوص ، وعرف حيل المحتالين والمستعرضين ، فبقيت هـذه الحياة المحلية منطلقا لآفاق أرحب ، عرف فيما بعـد كيف يسـتغلها فى بعض كتاباته .

وظل طيلة حداثته وهو يرى كيف تتشكل المملكة الاسلامية فى كنف خليفة بغداد ، وكيف أصبح عليه أن يجد فى تحصـيل العلم ، كما يجد الموالى ، ليصل الى هـذا الخليفة بادئا بعظيم ما فى بلدته ، ومتحولا الى أمير فأمير .

وما كان لأحد أن يأسى على ذلك أو يعارضه ، لأنه كان مبدأ عاما فى عصر تضخمت فيه الأنانية واستبدل بالايثار أثرة . وكان الناس يعزفون عما يعوق حركتهم الى أمام ، ويختارون أقصر الطرق مهما تكن طبيعتها ، ذلك أن المهم هو : خذ ما تستطيع برغم من لا يستطيع !

وقد يعنينا التاريخ الآن ، فهو منتصف القرن الثانى الهجرى . وكان المكان أعقد بقعة سكانية فى العالم ، حيث يتلاقح العـرب بالفـرس ويمتزج الروم بالزنج ، والزط بأهل السند والبربر والصين ، وثمة كلدانيون أو نبط ودماء أشورية وأخرى عدنانية وقحطانية . وكل هذا يدفع بالحدث الى شباب قلق وذكى وواع وعميق الأغـوار ، وبه اسـتطاع أن يقـاوم روح العـداء

ـــ الشعوبية ـــ التى كان العرب الأصلاء يقابلون بها فى كل مكان ، وان ظل دائما مقدرا أمجاد الأولين من غير العرب .

على أنه اذا كان لابد من أن يظهر الجاحظ على حقيقته ، فلابد من مناقشات مخلصة مع آثاره ، وهى كثيرة كثرة تدهش القارىء الى حد بعيد ، لو أنه عرض لها فى مقدمة كتابه « الحيوان » . ويبدو أن الكاتب نفسه أراد أن يعدد بقلمه ـــ ولو على سبيل التيه ـــ هذه الكتب ، ويبدو أن علينا نحن أن نطيل الوقوف معها لضآلة ما حفظ عن حياته ، برغم هذه الذكريات التى اعتاد أن يسوقها فى ثنايا كتبه بلا ملل .

والقضية على أى حال قضية فرد متطلع ، لكنه كان هين الأسرة . وتمكن من أن يظفر بالكثير ، ويثرى ، ويحتل مكانة بارزة فى مجتمع قد يصل هوانه به الى حد العبث بتفكيره .. فيكتب فى الشيء ونقيضه ، متحدثا عن الكلب والديك مثلا حديثا يبدو عاديا ، أو يبدو كما لو كان صدى لولعه بالجدل العقلى ، أو امتدادا ـــ قد نوه هو به للعجب ـــ لمنافرات الجاهليين ، لكننا لا نلبث أن تتبين صلته الوثيقة بالوضع السياسى أو الاجتماعى ، كما تتبين هذه الصلة ـــ بصراحة ووضوح ـــ فى رسالته المشهورة « مناقب الترك ، وعامة جند الخلافة » .

ومهما يكن من شيء فان الجاحظ الذى كان الخلفاء يتمنون الاتصال به ، مدين لهم ولمن دونهم بكل ما يبدر منهم فى حالات صفوهم وحالات كدرهم وعلى شتى الظروف ، فاذا كان علينا

أن نوفى ـــ بدلا منه ـــ حقهم من التقدير ، فلابد من أن نرجع القهقرى نحو قرن تقريبا نهايته عام ٢٥٥ .

على أننا نتوقف بعض الشيء لنقدم هـذه الصفحات عن الجاحظ ، وما نظننا بحاجة الى اشارة خاصة الى المنهج الذى اصطنع . فقد أخذ به « الأصمعى » أولا ثم « ابن المعتز العباسى » بعد ذلك ، وكان كلاهما محاولة لمزج حياة علم بآثاره وعصره فى اطار من التاريخ المحقق ، وهذا الصنيع ـــ فى رأينا ـــ وفاء لمنطق السيرة الفنية فى حد من حدودها المختلفة .

ولسنا نريد بعد ذلك أن نتطرق الى العمل نفسه ، فهو بين يدى القارىء يتفحصه ويقول فيه كلمته . لكننى أرجو أن أنبه على أنى اذا كنت أفدت من أعمـال المحدثين فى « الجاحظ » وبخاصة جاحظ الدكتور طه الحاجرى ، فقد كانت افادتى الكبرى من آثار الجاحظ نفسه ، بالاضافة الى طبقات المتقدمين وتواريخهم.

كما أرجو أن أنبه على أنى رأيت أن ألحق السيرة بقسم صغير ضمنته شروحا وتعليقات رأيتنى مضطرا اليها ، لالقاء الضوء على ما رأيت أنه لا يمكن أن يظل فى الظلام ، واستغنيت بذلك عن التهميشات المألوفة محددا كل شرح أو كل تعليق برقم خاص .

متطلعا فى نهاية الأمر الى ما اعتاد الجاحظ أن يلفت اليه نظر قارئه ، وهو حسن النظر فى الكتاب ولباقة تناوله ، حتى لا يضيع فى اشتجار القيل والقال .   والله المعين .

مصر الجديدة فى يوليو سنة ١٩٦٦   **أحمد كمال زكى**

الباب الأول

البحث عن طريق

١ ـ عمرو بن بحر

على تلك الدرب التى تخرج من سكة المربد ، وفى بقعة مهملة يغور فيها نهر صغير من عشرات الأنهر التى عرفت بها مدينة البصرة القديمة ، يقف غلامان صغيران بعيدين عن أترابهما يرمقانهم فى لهوهم بهدوء لا يتناسب مع سنهما الغضة ، وفى يد أحدهما ـــ وكان أسمر ناتىء الجبهة بارز العينين ـــ لوح وبعض أوراق ، وبدا الآخر أطول قامة دقيق الملامح حاد النظر .

ربما كانا فى السادسة أو السابعة ـــ فلا أحد يدرى متى ولدا تماما ـــ الا أنهما عرفا فى الحى من النجباء ، على خلاف ما بينهما من أصل وأسلوب تنشئة وطريقة حياة . وكان الأسمر القصير يتحدث دائما عن أبيه بحر الكنانى الذى ودع الدنيا ولما يزل فى ريعان الشباب وخلف أمه تعيش به على دخل هين ، وأما الآخر دقيق الملامح فهو لم يكن يعنيه الا أن يردد أنه على هوان أصله ـــ على الأقل فى نظر صديقه العربى ـــ يستطيع أن يقول ان أباه سيارا ينتمى الى عرق فارسى ثابت .. ولكنها الأيام !

غير أن هذا أو ذاك ليس بأبرز الخصائص ولا بأقواها ؛ وانما العجب العاجب حقا هذه الرغبة التى طالما اعتملت فى صدر الصغيرين .. أيهما يسبق الآخر فى مجال العظمة ؟

كأنما كانا يستشفان الغيب فينبئهما بأنهما من العظماء لا محالة ، أو كأنما اجتمع أهلوهما على أن يصل كل منهما الى ما وصل اليه كبار البصرة ، فحملا الرغبة كلاما وعزما معا . وراحا يجدان ويحفظان ، تسعفهما ذاكرة لاقطة وفطنة ملحوظة ، وعرفهما معلم الكتاب ندين صابرين على مشقة الرواية واستيعاب آيات القرآن . ولم يكن فيها ثمة نقص ولا توان ولا اهمال ، ولعل هذا يفسر وقفتهما الطويلة المتأنية .

فهاهم أولاء الأولاد يلعبون أمام عدة بيوت بعضها من القصب والبعض الآخر من الآجر ؛ عقدت عليه سحائب الغبار طبقة قاتمة ، وهاهم أولاء يخوضون فى الوحل ويتراشقون بالحصى ونوى التمر ، بينا أمهاتهم من حشوة النساء يصرخن عليهم بلا جدوى ، وهنا يقول الأسمر البارز العينين لابن سيار :

ـــ تترك أمثالك لتلازمنى ومعى هذا ؟

وكان قد أشار الى اللوح والأوراق ، فقال ابن سيار وهو لا يرفع عينيه عن غلمان الحى :

ـــ ان كنت تعنى بأمثالى موالى العرب فان العرب ليسوا سودا يا عمرو .. أتعرف هذا ؟

فقال ابن بحر :

ـــ أعرفه ، ولكن يقال ان فيهم من السود كثيرين سماهم رواة المسجد بالغربان يا ابراهيم !

فقال ابن سيار :

ـــ فأنت اذن غراب الحى يا عمرو !

ويضحك ، ولكن عمرا لا يتركه ينعم طويلا بضحكه ، اذ يسرع فيلقمه حجرا عارضا بهجنته واختلاط نسبه ، فيقول :

ـــ ولكنى لست من بلخ ، ولم ترضع أمى بلبنها غيرى يابن الحمراء .

تلك سبة ، ولكن ابراهيم بن سيار يعلم أن صاحبه لا يتورع مطلقا عن أن يسلقه بمثلها أو أفحش منها وطالما أثير فغضب ، ولهذا آثر أن يسكت . ولكن بقدر السهولة التى يمكن أن يتحمل بها صبيان هذا النوع من الغمز والتجريح ، كان كبارهما يشقون به بعد أن عصفت العصبية بالمدينة الكبيرة وامتدت الى بغداد ـــ التى كانت فى ذلك الوقت لا تزال فى نهاية ربع قرنها الأول ـــ وسائر مدن العراق . حقا كان العرب اذ ذاك هم السادة ، لكن القطاعات السكانية الأخرى من « الأعاجم » حملوا الضغن على « سادتهم » خفية وعلانية .

وربما بقى شىء آخر قد يخطىء النظر فى الكشف عنه ، وان تكن الأخبار تحمله ملوّحة به فى وجه هذا الكنانى السليط . ولقد اعتاد هذا الشىء أن يؤرقه ، ويحاول هو جهده ـــ بقدر

ما يستطيع ـــ أن ينقضه ، ولكن ما السبيل ؟ ان ابن سيار يخبره ، ببراءة يصطنعها ، أن أمه تقول لصواحبها وهن فى أفنية دورهن الحقيرة : ان أم عمرو لم تكن زوجا لعربى قح ، ذلك أن رجلها بحر ابن محبـــوب بن فزارة كان مولى زنجيا لأبى القلمس الكنانى الفقيمى ، وعمل جمـــالا لواحد من سادة العرب اسمه عمـــرو ابن قلع .

أهذا ممكن ؟

تلك هى المعضلة ، وأنى له بمن يصحح هذا الوهم الذى يريد أن ينال منه وينحدر به الى حيث يقف الحمراء ؟ وكانت الأم نفسها لا تزجى له رأيا قاطعا ، وطالما راوغت ، وفى كثير من الأحيان كانت تقول له :

ـــ انه الحسد يا ولدى .. فأنت عربى صريح النسب كريم الأصل ، ولن أدعك حتى تأخذ بآداب قومى وجيرتى .

كلام جميل ، ولكن أين هو من الحقيقة ؟

لقد كان ولا شك خليقا أن يستوى على مكان البروز بين الأعاجم ـــ ومنهم صديقه ابراهيم ـــ ثم ينتهى شأنه أو ينتهى شأنهم هم كما انتهى شأن الآخرين ، ولكن أهذا يكفى والقوم من حوله يتصايحون بالنسب ويتهاجون بالهجنة ؟ ان أحدا ليس أحق منه بالدفاع عن أرومته لهذه الشوهة التى تجعله أمثولة بين أقرانه . وليكن عنيدا ، وليكن قوى النفس بالغا فى القـــوة

النفسية ، فهو على قوته تلك سيظل كالآخرين يبحث عن الأصل العربى الصريح .

وكان من الجائز أن تفسد هذه البلبلة حياته وربما دمرتها ، ولكن صبره وعناده وذكاءه واستعداده العقلى الكبير .. كل أولئك كان يدفعه دفعا الى أمام حتى ضرب المثل بجده معلم الكتّاب ، وتعود هو أن يحمل لوحه فى تيه ليريه لأترابه فى الوقت الذى كان فيه ابن سيار لا يكف عن التنديد به مزحا ، زاعما أن المعلم لا يحبوه بوده الا رثاء على دمامته .

ذلكم هو عمرو بن بحر الذى ولد حول العام التاسع والخمسين بعد المائة ، وانتمى الى بنى كنانة بن خزيمة [1] . وانتماؤه هذا بحق أو بغير حق لم يكن يعنى أكثر من محاولة للتمسك بأهداب الكبر ، وظل ، بعد ذلك أو قبل ذلك ، من أسرة رقيقة الحال انتهى أمرها بأن جاورت أسر الموالى فى هذا الحى الفقير من أحياء البصرة . فضلا عن أن التاريخ يقدر أنه على الرغم من أن عمرو ابن قلع — أحد آبائها الأولين — كان صاحب النسىء [2] فى الجاهلية فانها لم تنجح كثيرا فى التجارة ، وضربتها حركة الفتوح الاسلامية فى مقتل ، حتى أصبحت على الاسلام من عامة القوم ، تقنع بنصيبها الضئيل من العطاء السنوى المقرر .

ولا يحسن الاستطراد بعد ذلك ، فان الطفل ابن الأسرة المغمورة القاطنة فى هذه البقعة الحقيرة من أحياء البصرة كان يحث خطاه الى الشهرة ، دون أن تكون هناك خطة معينة لتنشئته .

بل ربما كانت أمه التى راحت تكفله بمشقة كانت تطمع فى أن يجيد الكتابة ليعمل أى عمل ، ولكن لا بأس فى الوقت نفسه من أن يمتهن أية مهنة تدر عليه وغليها أى ربح !

وعندما كان يردد على سمعها أسماء شيوخ الجامع من أمثال : « الخليل بن أحمد » و « ثمامة بن أشرس » و « أبى الهذيل العلاف » و « الأصمعى » و « أبى عبيدة » كانت تهز كتفيها وتقول له :

ـــ سينفعونك يا بنى ، ولكن هل تستطيع أن تصل اليهم ؟ أرجو ذلك بشرط ألا نبيع بقية ما خلفه لنا أبوك .

ويؤكد لها انه عندما يقترب من واحدة من حلقات هؤلاء الشيوخ يفهم الشىء الكثير ، ويعلن أيضا انه يجد لذة كبيرة عندما يحضر مناقشة بين الأصمعى وأبى عبيدة ثم يخبرها أن سريا اسمه أبو عمران مويس بن عمران يثنى عليه دائما ، كلما التقى به فى المسجد ، فتقول :

ـــ ان كنت تظفر منهم بطائل : فأنت مشكور يا عمرو ، وهم مشكورون .

وتسكت ويضطرب هو ، غير أنه يحس أنه مكلف باحتمال تبعة محورها لقمة العيش . ومثل هذا خليق بأن يبدل أطـوار النفوس فى بعض المواقف ، وبخاصة مواقف الأزمات ، ولهذا لم يكن يجد غضاضة اذا امتدت يده الى ما يمنحه له مويس ، وكان على ندرته يرضى أمه شيئا ما ويثيره هو شيئا ما . وتبدو

الظروف كلها فى هذه المرحلة المبكرة من حياته متعاقدة على أن يسير فوق الشوك على نحو يثير حفيظته على البشر ، ويملأ نفسه بالحنق على الانسان ، ويوجه سخطه الى هؤلاء الناعمين فى قصور بغداد ودور البصرة الكبيرة ــ ومنها دار مويس التى كانت ملتجأ للعلماء والمتناظرين ــ لكنه فيما يبدو كان يقبل كل أمر بيسر لا يخلو من تساؤل ، أو لعله راض نفسه على ذلك ، بل ربما هون على نفسه بضحكة ما . وستكبر هــذه الضحكة مع الأيام ، لا لتصبح مجرد قهقهة عالية ، وانما لكى تكون دنيا كاملة من السخرية والسحر والمرارة .

لكنه من ناحية أخرى كان يراقب ويدقق ويحصى ويطيل السمع الى أصوات الناس والحيوان ، ولعله قلد صوتا أو حركة أو أقبل على حشرة من الحشرات يقلبها وينخسها فى بطنها بمسمار . وأكثر ما كان يلذ له ــ بل لعله الأمر الوحيد الذى يجارى فيه صبيان الكتاب ــ أن يعدو وراء أحد الكلاب الضالة ويحصبه بالحجر ، أو يلقى عليه لوحه اذا رآه نائما فيرض عظامه [٣] .

لمــاذا ؟

لا ندرى ، فليس كل شىء يمكن تفسيره فى سلوك غلام يعيش ظروفا مضطربة فى عصر تتشابك فيه القيم !

ويحدث فى يوم من الأيام أن تنقلب الآية ــ وهذا يهزه ــ فيرى كلبا يصول وسط أبناء الحى عاويا نابحا ، والجميع يجرون منه فيصرخ قائلا :

ـــ انها لحظة من لحظات الثأر .. يا غوثاه !

وهناك واحد من أصحابه الصغار ـــ اسمه مهدى ـــ يقف بجانب حانوت أبيه القصاب ، فيثب عليه الكلب وثبة تطيح باللوح ثم يدفع بفمه الى وجهه . وقد رأى عمرو أن من العبث منع هذا الكلب عما هو فيه ، واكتفى بمراقبة المعركة غير المتكافئة . وكانت النتيجة : أن الكلب تمكن من فقع ثنيته فى موضع الجفن من عين صاحبه اليسرى ، فخرق اللحم الذى دون العظم الى شطر خده ملقيا به على وجهه وجانب شدقه ، بينما راحت الدماء تنبثق بقوة ، حتى ظن من رآه أنه مقضى عليه لا محالة ، وبخاصة عندما شوهد لا ينبس كأنما أسكته الفزع الأكبر [٤] .

٢ ـ أبو عثمان

حكى عمرو حكاية مهدى لأمه ، فأعلنت عن اشفاقها المصطنع بتقليب شفتيها ، ثم نصحته بترك مداعباته الثقيلة للكلاب وغيرها . بل راحت تندد بكل ما تراه منه من اهتمام بالحيوان عامة ، فالعاقل من لا يشغل نفسه الا بما يملأ كمه من أكياس الدراهم ! .

ولم يكن فى الواقع يريد أن يكون عاقلا بالحدود التى ترسمها أمه ، فهناك السلحفاة التى أودعها دهاليز بيته ، وهناك جرذ اعتاد أن يراه يقفز هنا وهناك كلما هدأت حركة البيت ، ولحظ أكثر من مرة ثعبانا يطل برأسه من احدى فجوات الجدار المشرف على السبخة الآسنة .. وقالت له أمه : انه يطلب الجرذ ! وأما الفراشات

والضفادع والبراغيث ، فهى دنياه التى يرتادها ، أو يحب أن يرتادها كلما ترك لوحه وورقه .

على أن أمه ذكرت ان صاحبه ربما مات ، فما دام الكلب قد أعمل فيه أنيابه على هذا النحو الذى وصفه ، فلابد أن يكون مكلوبا ، والكلب داء خطير يبدأ بأن ينبح المصاب به ويعطش أشد العطش ثم قد يبول علقا فى صورة الكلاب قبل أن يموت .

وقد انتهز فرصة فراغه من بيع ما معه من السكر الأبيض ، فأسرع الى بيت مهدى يدفعه فضوله أكثر مما تدفعه رغبته فى السؤال عن سلامته ، فاستقبلته أمه حفية به .. انها أطيب من أمه ، وقالت له انه نائم ، فسألها :

ـــ هو بخير يا أماه ؟

أجابت :

ـــ الله لطف به وقد خيط موضع الجرح .

قال :

ـــ أبال جروا أم هرا يا أماه ؟

فأجابت :

ـــ لا ، وشفاه الله !

وظل ينتظره أياما حتى رآه ذات يوم فى الكتاب ، فأخذ يمطره بوابل من الأسئلة ، ولا يرى فى وجهه من القطع الا موضع الخيط الذى خيط به ، وسرعان ما تبين خطأ أمه ، فلما عاد اليها قال :

ـــ ان ما ذكرته عن الكلب الكلِب يحتاج الى مراجعة ، وسآتيك يوما بالحق الصراح .

على أن محاولاته فى سبيل ذلك توقفت فجأة ، فقد نزحت أسرة ابراهيم بن سيار عن الحى فجأة ، وأحس هو فراغا لم يكن يملؤه استرجاعه أيامهما الأولى ، وقد أصر على أن يحمل النبأ لمعلمه فما زاد هذا على أن قال :

ـــ اذن فقد فقدنا درهما يابن بحر !

ويأخـــذه عجب أى عجب ، ولكنه لا يلبث أن يدرك قيمة الدراهم ، وهنا يعاهد نفسه على أن يظل وفيا لها . بل ربما فهم بوضوح سبب حرص أمه على أن تربط بين العقل والدراهم دائما ، بل لابد أن يكون حديث الناس عن البخل والجود صدى لهذه الرغبة التى أفصح عنها معلم الكتاب الجشع .

ـــ المال هو كل شىء !

ومن أجل المال يجب أن يشتغل ويتعلم ، وما على أمه الا أن تهيىء له الفرص أو تتركه يخط مصيره بيده دون أن يشغلها صغر سنه ، فهو قادر على أشياء كثيرة ، وهو يجذب اليه فى كل وقت عيون الناس وعقولهم ، ولقد يسمع أحيانا من يقول « ما هو بانسى هذا الحدقى الصغير » فيتألم بعض الوقت ولكنه لا يلبث أن يسرى عن نفسه بما تعود أن يقبل عليه .

ولقد بدا واضحا أن أبا عمران مويس بن عمران عقد العزم على أن يتعهده ، ولم يجد هو غضـــاضة فى ذلك ، بل ربما هنأ نفسه . وفى الأيام التالية كان يبثه لواعجه ، ويحدثه عن آماله ومتاعب أمـــه . واعتاد مويس أن يمتحن حفظه لمقطعات الشعر

وأراجيز البدو ، فيعجب أن تتسع ذاكرته لكثير مما يسهل نسيانه ، ويقول :

ـــ ما أشبهك بالمتكلمين فى حداثتهم !

وكان هو من المتكلمين أو مخالطا لهم على الأقل ، وكثيرا ما خاض فى مسائل الاعتزال والارجاء بآراء مسددة ، وشد الغلام الى مجالسهم وحثه على أن يحفظ قصائد صفوان الأنصارى وسليمان الأعمى وهما يردان على بشار بن برد فى تفضيله النار على الأرض ، ويعرضان لمسائل من العلم الطبيعى .

ولقد كبر عمرو وكنى بأبى عثمان علانية ، بعد أن هجس بالكنية خاطره طويلا ، وفى المسجد دار بجماعة من رفاقه حريصا على أن يخاطبوه بها ، فجلس الى موسى الأسوارى الذى يجتمع العرب والفرس حوله فيفسر لهم آيات القرآن الكريم بالعربية والفارسية جميعا ، ثم انتقل الى مجلس الخليل بن أحمد . غير أنه لم يكد يستقر شيئا حتى لمح صديقه ابراهيم ، وكان أبوه سيار يمسك بيده حتى اقترب من الشيخ فسلم وقبل ما بين يديه ، وان هى الا لحظات قصار حتى كان ابراهيم هدفا لأسئلة الخليل .

ان المسجد يستقبل اليوم الشخص الذى وعد بالشهرة !

وقد بدأت المناقشة عادية ، ثم ما لبثت ان ارتفعت الى المستوى الذى يجاوز مجرد حفظ آيات القرآن ومتون اللغة . وبدا ابراهيم عملاقا ، واكتسى وجهه قناعا من الصرامة والجد ، وتصور عمرو أنه لا يمكن أن يكون ـــ برغم حداثته ـــ دون أحد من شباب

الشيوخ الذى يجلسون هنا وهنالك . وعلى الرغم من أنه هو كان يمكنه أن يجيب عن الأسئلة التى راح الخليل يسددها لابراهيم ، فان هذا استلب الألباب بهدوئه وثقته وبعباراته المركزة المنغومة .

ومن بعيد كان مويس يرقبه ، فلما انتهى المشهد قدم عليه وهو يقول :

ـــ يمكنك من الآن أن تسبقه ، بل يمكنك أن تكون أكبر من هؤلاء الشيوخ ، لكن على ألا تقول ما ترك الأول للآخـــر شيئا ، وسأعطيك من الكتب ما تقدر على استيعابه ويزيدك فضلا وعلما .

وأعطى كتبا فى أخبار العرب ومنازلهم ومنافراتهم وأنسابهم ، فكان يحفظ منها وينقل بعضها الى كراريس زحمت أركان غرفته المتواضعة ، واستطاع أن يطمئن ـــ فيما بينه وبين نفسه ـــ الى أنه ليس دون صديقه ابراهيم . لكن أمه ، فيما يبدو ، ســـاءها ذلك ، أو لعلها لحظت كسادا فى تجارته المحدودة ، وقد عبرت عن استيائها بطريقة عجيبة ، فقد حدث أن طلب منها الطعام فجاءت اليه تحمل طبقا فوقه عدة أوراق وكراسات ، ولما سألها :

ـــ ما هذا يا أماه ؟

أجابت :

ـــ هذا الذى تجىء به كل يوم !

فخرج مغتما الى المسجد الجامع فلم يجد أحدا من أصحابه ، غير أن مويس بن عمران لمحه وشاهد شحوبه واكفهرار وجهه فسأله برفق :

ـــ ما شأنك يا أبا عثمان ؟
وكالعادة حدثه بما جرى ، فصحبه الى بيته وقدم اليه الطعام . حتى اذا استوفى منه حقه مد اليه يده بكيس فيه دنانير وهو يقول :
ـــ أشبع أمك يا ابن بحر بما تشتريه من السوق ، أيكفى خمسون دينارا ؟
وهتف أبو عثمان :
ـــ خمسون كاملة ؟
فضحك مويس وهو يدفعه الى الخارج ، وقال :
ـــ لا تنقص شيئا والله !
وسرعان ما كان أبو عثمان فى السوق يشترى الدقيق والزبيب والزيت والتمر ، ولم يرجع الا وحمالون يتبعونه بمئونة كبيرة ، وعندما رأت الأم كل هذا صاحت قائلة :
ـــ من أين لك هذا ؟
قال :
من الكراريس التى قدمتها الى !

٣ ـ فى المربد

على الرغم من أن أبا عثمان كان متهلل الخاطر متطلق الوجه ، فقد بدا فى ذلك اليوم من عام ١٧٠ عابسا . ان ابن سيار أنهى اليه نبأ وفاة الخليل بن أحمد ، وذكر له : ان ذكرى الراحل ضاعت فى تولية يحيى البرمكى الوزارة للرشيد .
لم يعرف بالنبأ من قبل ، لأنه انقطع أسبوعا أو نحوه فى

استظهار بقية ما أعطاه له مويس ، والاستعداد للسفر الى البادية مع جماعة من المسجديين ، وبخاصة بعد أن اطمأن الى أن المتبقى من الخمسين دينارا يهيىء لأسرته قوتها على نحو مرض طوال غيابه . على أنه اضطر الى أن يندد أمام صاحبه بقول سمعه من الخليل ولم يرض عنه وهو : « تكثر من العلم لتعرف ، وتقلل منه لتحفظ » ورد عليه ابن سيار بأنه يوافق على ذلك تماما ، لأن القليل وحده للصدر ، فى حين أن القليل والكثير للكتب . وقال أبو عثمان : ان الموافقة قد تجوز من حيث المبدأ لأن الانسان يستطيع فعلا أن يدرب نفسه على استيعاب ما فى أى كتاب ، ثم أعلن عزمه على أن يقوم بذلك بطريقة تضمن له أسباب المعرفة بالقدر الذى يجب أن يرفعه على الجميع .

وفى هذه اللحظة برز من ناحية قصر زربى فى المربد أبو سعيد الأصمعى وأبو عبيدة معمر بن المثنى المتنافسان على مشيخة اللغة فى المسجد بعد وفاة أبى عمرو بن العلاء ، وأسرع ابن سيار فجذب يد صاحبه ليبتعد به عن طريقهما ، وهو يقول :

— لنتجول فى المربد يا أبا عثمان .. فهذا خير من لجاجهما .

فقال عمرو :

— لعلك لا ترتاح الى أبى سعيد ؟

قال :

— ربما .. لكن لم تسأل عن السبب ؟

قال عمرو :

ـــ حملته على الحمراء .

فرفع ابن سيار يديه صائحا :

ـــ ما هذا ؟ كأنك أصبت بما أصيب هو به من تعصب أعماه عن الطريق السوى .

قال عمرو :

ـــ أراك تردد ما يقوله الموالى فى الجامع ؟

فصاح ابن سيار :

ـــ وأزيد أنه سلفى متزمت وأكاد أكرهه .

قال عمرو :

ـــ ربما كنت مثلك لا أميل اليه يا أبا اسحاق ، لكن يجب أن تجعل للرجال أقدارا . واذا كان لابد أن تتكلم فى هذا فلماذا ندع أبا عبيدة وفيه ما يسوء وينوء .

قال ابن سيار :

ـــ رواياته عن لصوص العرب ؟

قال عمرو :

ـــ أولى أن تقول : أحاديثه عن مناقب الحمراء ، لكنك تنسى لحيته ووساخة وجهه أو قل دمامته .

وهنا انفجر ابن سيار ضاحكا ، ثم استدار الى عمرو فجأة وهو يقول :

ــ أتتكلم عن الدمامة يا أبا عثمان ؟

وراح يتفرس فى وجهه ، بينما شعر عمرو كأنما الدنيا تدور به ، وكان لابد أن يتماسك وأن يواجه صاحبه بكل ما يملك من عنف ، فقال بعد قليل :

ــ أنت تعيرنى يا أبا اسحاق ؟

ــ ربما .. لكن ..

ــ تعيرنى بقبح خلقتى ؟

ــ أنا لا أقصد تماما أن ..

ــ اذن فلعل هذه الخلقة تدهشك !

ــ ربما .. لكن ..

ــ اذن نبئنى ما الذى يدهشك على وجه التحقيق !

ــ لقد أخطأت يا أبا عثمان .

ــ هل هما عيناى الجاحظتان كأنهما بطن حوت مبقور ؟

ــ حاشا يا أخى .. لم يخطر هذا لى على الاطلاق .

ــ اذن فأنفى الأفطس ما ..

ــ وهل أنفك أفطس يا أبا عثمان ؟

ــ هو كما ترى .

ــ أنا لا أرى شيئا .

ــ فلعلى اذن أبدو بلا أنف ؟

ـــ بل ها هو ذا يغطى معظم وجهك .

ـــ ومن أجل ذلك تسكتنى به عن أبى عبيدة ؟

ـــ كلا والله .. انك واهم واننى لأتحاشى النظر اليك !

ـــ وما يدعوك الى هذا يا أبا اسحاق ؟

ـــ لقد كنت ..

ـــ أفاشمئزازا منه ؟

ـــ أستغفر الله ما عن هذا لى .

ـــ أم لم تسترح الى صغر أذنيه ؟

ـــ انهما جميلتان يا أخى .

ـــ ما بالك هكذا تضطرب ، وعهدتك قادرا على الكلام ، على أننى أريحك فأقول اننى بهذا الوجه القبيح لراض ، وبقصر قامتى لشاكر الى الله ، فان سألتنى قلت : قبح الوجه الذى أغنانى عن نظرات الفضوليين أمثالك يعلمنى أن الناظر فيه ان كان فطنا رأى فيه مقابلا للحسن كى يتدبر بديع صنع الله ، وان كان بليدا لم يزده النظر الا حسرة على أنه لم يوهب اللسان ليبين كم هو قبيح وأين يوضع بين كل مليح . على حين تكفينى قامتى القصيرة عن التوسع فى ابتياع الأقمشة ، حتى اذا جعت يوما وطلبت مع جوعى الكساء كفانى الله مؤونة استبدال أحدهما بالآخر ، وقدرت على الاثنين فسترنى الله وأطعمنى .

وهكذا راح أبو عثمان يضرب فى صنوف الكلام دون أن

يلحظ تجمع بعض القوم حوله ، وبدا كما لو كانوا أخذوا بنصاعة بيانه وقوة منطقه . غير أنه لم يلتفت اليهم الا عندما ارتفع صوت من بينهم يقول فى قوة ووضوح :

— انه يذكرنى بحداثتى يا أبا عبيدة .

وقال أبو عبيدة :

— فلننتظر ماذا يقول الآخر .

وكان لابد أن يتكلم ابن سيار ، فقال فى هدوء :

— تظن أنك غلبتنى يا أبا عثمان ؟ موعدنا الغد ان كان فى العمر بقية ، وان غدا لناظره قريب !

وانصرف عجلا ، فارتفع صوت أبى عبيدة يقول للأصمعى وهو يسحبه من يده ليبتعدا :

— انه يتكلم كما يتكلم الرجال ، وأحسب ما قاله خاله أبو الهذيل صحيحا ، حفظ القرآن والتوراه ويحفظ الانجيل والزبور !

ودوت هذه الكلمات فى أذنى أبى عمرو فجاشت نفسه ، وراح يضرب فى الطريق ساهما ، ولم يتوقف عن السير والتفكير الا عندما ألم بجماعة من المربديين يجلسون الى أبى جعفر العنبرى الراوية الذى بدأ يجذب اهتمام أبى عمرو بتدفق فصاحته وطرافة أخباره وسمعه يقول :

— يقول المروزى للزائر اذا أتاه وللجليس اذا طال جلوسه

« تغديت اليوم ؟ » فان قال نعم ! قال « لولا أنك تغديت لغديتك بغداء طيب » وان قال لا ! قال « لو كنت تغديت لسقيتك خمسة أقداح » .

وضحك المتجمعون وعلا ضجيجهم ، ولم يكفوا عن ذلك حتى قال أبو عثمان وقد استطاب الحديث :

ـــ وهكذا لا يصير فى يده على الوجهين قليل ولا كثير .

وتطلع اليه العنبرى وقال :

ـــ أهو أنت ؟

فقال ضاحكا :

ـــ لست غيرى على أى حال .

وعاد المربديون يضحكون ، فلما سكتوا قال أبو جعفر العنبرى :

ـــ ان سمعت الى مثل هذا الحديث دائما ورويته فلن تجنى الكثير ..

قال عمرو :

ـــ اننى أمعن فى قراءة الكتب وأحفظ الأشعار والأخبار وأجلس الى حلقات المسجد ، وفى المربد ألزم أبا مجيب وعبيدا الكلابى ولا أهمل حلقتك .

قال العنبرى :

ـــ رواياتنا لا تغنيك عن البادية يا أبا عمرو ، فاعقد العزم وسافر ، أو فاصحبنى من غد الى الجزيرة أسمعك من الأعراب مالم تسمعه قط .

قال عمرو :

ـــ كنت عزمت على الرحلة قبل قولتك يا أبا جعفر ، وما دمت على السفر من غد فخذنى معك .

ومن المؤكد أن هذا الرجاء يتمشى مع رغبته التى أبداها لأمه ، لكنه يحلله من اتفاقه مع أصحابه المسجديين الذين أبدوا رغبتهم فى السفر معه منذ أيام . فان صحبتهم وان كانت تسرى عنه وتضحكه ليس ينبغى أن تكون هدفا للضحك ، لأن للمزح موضعا ، وله مقداراً متى جازهما أحد صار الخير خطلا ، واليوم للعمل فقط .. للتحصيل العميق الذى لا يكون الا حيث يوغل الأعراب فى الصحراء ، ويطمئنون الى الشيح والقيصوم ، ويغنون للخيل والنوق ، وما أروعها حياة !

انه يريد أن يكون راوية .. ربما أفضل من الأصمعى أو من هذا الذى هواه مع ابن سيار ، لماذا ؟ لا يدرى ، ولكن ندر بين أئمة العلم من لم يتحيز الى الحمراء ، وقد تحيز أبو عبيدة . ذلك ظاهر تماما ، فى حين كف الأصمعى عن أن يفصح عن رأيه بوضوح ، فليكن .. والغد قريب ، وقد تكون الرحلة القادمة ـــ أول رحلة له ـــ مفتاح هذا الغد .

٤ - الرحلة الأولى

لماذا يصر الناس على أن يتصوروه غرا ؟

هل اثنا عشر عاما ـــ أو نحوها ـــ بالقليل عليه ليبدو عاقلا حصيفا يمكن أن يجلس الى الأخفش ، ويحفظ عن الأعراب مشافهة ، ويعد نفسه بالاتفاق مع أبى جعفر العنبرى لأن يتخرج فى رواية الحديث على أبى يوسف يعقوب القاضى (٥) .

القضية ليست قضية سنوات قليلة من العمر ، فثمة كثيرون دونه سنا ، وأثاروا الدهش بذكائهم وسرعة تحصيلهم ، ولكنها قضية استعداد واصرار ورغبة فى التفوق ، ولديه هو ذلك بغض النظر عن ضآلة جسمه التى قد تثير بعض الشكوك فى قدرته على التحمل !

ولقد عانى هو ذلك منذ أول يوم بدأت فيه رحلة العلم ، وساءه أول ما ساءه أن رفقاءه راحوا يعاملونه معاملة الغلام الصغير ولا يخاطبونه فيما يشكل عليهم ، وينصرفون عنه بأحاديثهم الجادة ، ولكنهم سرعان ما تبينوا أن كل مرة يدفع فيها الى الاختبار يرتفع الى مستواهم بسهولة . وكانت عيناه الواسعتان اذا هدأت نفسه أغلقتا فى أناة فترة ، ثم انفتحتا على بريق صاف ينساب معه صوته ، وهو يمسح على كل أثر سيىء يمكن أنتتركه كلمة « حدقى » أو كلمة « جاحظ » .

بل كان الذين يدعونه باحدى الكلمتين لا يجدون مفرا من الاحداق به ما وجدوا أنفسهم فى فراغ يستطيع هو ملأه ، فكان

يفتنهم برواياته . ولا يلبث أن يلقى عليهم بآراء يقع فيها على الفكرة الشائعة .. فخلف الأحمر شاعر أكثر منه راوية ، والمستقبل لأبى نواس شاعر البصرة العاشق ، وابن المقفع أعظم الأعاجم الذين تعلموا اللسان العربى وكتبوا به .

وكان الطريق رائعا لم تبرح صورته مخيلته على الاطلاق ، وكان عمرو عندما وقف على بئر الحفير — جنوب غربى البصرة بأربعة أميال — قد سأل عن آل الأصمعى من باهلة ، وكأنما كان يريد أن يتثبت مما يشاع عن هوان هذه القبيلة . ولم يجد أحدا لم يرتفع بخلف أبى عمرو بن العلاء — يريد الأصمعى بطبيعة الحال — الى عليين ، وزاد ابن أخيه سران فتحدث عن أسرة سلم ابن قتيبة الباهلى ، وعن دورهم التى تزحم البصرة مجدا وأناقة وثراء .

وهنا ود عمرو أن يسمع من أى أحد حكاية الأعرابى الذى سووم على أن يدخل الجنة بشرط انتمائه الى باهلة ، فرضى بعد لأى وعلى ألا يعرف أهل الجنة ذلك !

هو لم يعرف لماذا ، ولكنه كان يرى أنهم يدعون والادعاء آفة الحى . وقد ودعهم غير حميد أو غير محمود ، فسيان ذلك ، ملقيا بنفسه مع القافلة فى الطريق المنحدرة جنوبا ، وهو يروى هجاء اليزيدى للأصمعى قائلا :

وما أنت ، هل أنت الا امرؤ   اذا صح أصلك من باهله !

ولم يكن فى النية الاتجاه الى الحجاز ، ولهذا ودع الركب سكة الحجاج المتجهة شرقا فى بادية العراق مارة بدومة الجندل ، وولى وجهه الى البحرين ضاربا فى أرض بكر ، وحيث كانت تنزل طسم وجديس ، ومنى عمرو نفسه بأخبار عن القديم .

وبدت أرض الطريق معشبة والسماء صافية . الا أن الحر كان لا يطاق ، وزاد النفوس اشتعالا أعرابى عرفه أبو جعفر باسم يزيد بن كثوة العنبرى . وكان من الممكن ألا يلفت اليه هذا الأعرابى أحدا ، الا أن قرابته لأبى جعفر من ناحية واغراقه فى استعمال غريب اللغة من ناحية أخرى جعله هدفا . فأثار الاعجاب والدهش ، ونقل عنه عمرو جانبا من نوادره ، ولما ودعوه أبى الا أن يختم أعجب ختام فقال :

ـــ ارووا عنى .. أتيت بنى كش فاذا عرس ، وبلق الباب فادرنفق وادمج فيه سرعان من الناس . وألصت ولوج الدار ، فدلظنى الحداد دلظا دهورنى على قمة رأسى . وأبصرت شيخان الحى هناك ينتظرون المرية فعجبت اليهم ، فوالله أن زلنا نظار نظار حتى عقل الظل ، فذكرت أخلائى من بنى تبر فقصدتهم وأنا أقول :

تركت بنى كش ومـــا فى ديارهم
عوامد واعصوصـــين نحو بنى تبر
الى معشر شـــم الأنوف قــراهم
اذا نزل الأضياف من قمع الجــزر

وانصرفت وأتيت بنى كش واذا الرجال صتيتان ، واذا أرمداء كثيرة وطهاة لا تحصى ولحمان فى جثمان الأكام [٦] .

وبرحيله أثيرت مسألة الأغراب وقضية البلاغة ، وبالقدر الذى وعاه عمرو انتهى الى أن البلاغة ليست بالضرورة من قبيل كلام ابن كثوة ، كذلك ليست التعبير بالكلام الملحون والمعدول عن جهته ، حتى وان فهم هذا الكلام كما يفهم الناس عن النبطى الذى قيل له : لم اشتريت هذه الأتان ؟

فقال : أركبها وتلد لى [٧] .

وكان فى الجماعة شاب اسمه قاسم التمار لمح فيه عمرو خفة ونزقا ، غير أنه أنس به ، فلما قال « البلاغة هى ألا يبلغ الأمر بنا حدالاكتفاء بالتمر » ضحك الجميع وأقبلوا على الزاد من الجردق وقطع الجبن والزيتون والبيض وغيرها مما يسهل حمله فى رحلة طويلة يعلم الله متى تنتهى .

ولقد كان فى نية عمرو أن يرجع برجوع أبى جعفر ، ولكن بوصوله الى بادية البحرين ــ وهى بقاع خصبة تكثر فيها الثمار ــ غيّر رأيه . فقد تعرف بابن أحد سراة البصرة يدعى عبد الرحمن ، وقدمه هذا الى أبيه عبد الملك بن صالح الهاشمى .. رجل عملاق مهيب ، صارم الوجه كبير العمامة ، يبدو كأنه قائد جيش كبير ، الا أنه كان ولعا بانشاد الشعر وحكاية النوادر . وعندما رأى فى عمرو راوية أصيلا دعاه الى ركبه ضيفا ، وكانت هذه الدعوة بداية صداقة ستظل بعد ذلك أعواما .

كان عبد الرحمن أكبر من عمرو شيئا ما ولكن طول قامته كان يضيف الى عمره الحقيقى سنوات ، فضلا عن أن ولعه بركوب الخيل والخروج للقنص كل صباح كان يملأه فتوة وحيوية . ولقد رأى فيه عمرو كل ما افتقده فى نفسه ، غير أنه لم يحسده ، لأنه كان يرى أنه يمتاز عنه بالذكاء .

وقد وصل عمرو مع ركب عبد الملك الى القطيف والخط على الساحل ، وشاهد الأماكن التى جرت فيها الوقائع بين نجدة الخارجى وبين عبد القيس ، وسمع الى عبد الملك وهو يصف تلك الوقائع وكيف انتصر الخوارج . وزاد فروى أن الرماح الخطية تنسب الى هذا المكان ، لأنها تصنع فيه . ومن القطيف الى نجد أنفق الركب ستة أشهر ، التقى فيها عمرو بالكثيرين ، وعرف من عبد الملك وابنه الكثير ، ودون فى أوراقه مالم تسعفه ذاكرته على حفظه ، لكنه أسف لأنه لم يعرف ما كان يود أن يعرفه عن طسم وجديس .

واذا كانت متاعب الرحلة قد بلغت منتهاها بعمرو ، فقد وجد هو على مشارف نجد منابت العرار والخزامى ، وتصور الشعراء الذين رتعوا بين مرابضها وغنى بما يحفظ من أشعار المجانين أو عشاق ليلى . وكان انتقاله الى القلب مرتبطا بخطة رسمها عبد الملك بعناية ، وأحيط هو علما بتفاصيلها ، عندما حطت الرجال بين جبلى أجأ وسلمى اللذين اعتصمت بهما طىء منذ قديم واعتزت بهما فنسبا اليها .

وفى هذا المكان تفتحت عينا عمرو على القصص والأساطير ، ووعى الكثير من أخبار العماليق وجرهم وجاسم وغيرهم من عشائر اليمن . الا أنه كان يميل بهواه الى كل ما هو عدنانى ، وقد صرح بذلك لعبد الملك فى احدى جلساته المسائية التى يطيب فيها السمر على نور القمر .

ولم يكن بد من أن تثار الموازنة بين قحطان وعدنان ، وكان من رأى عمـرو أن العدنانيين هم أرباب الفصاحة ، ويمدحون بشدة العارضة وثبات الجنان ، وكثرة الريق ، والعلو على الخصم مع ميل الى التحبير والطلاقة . ولم يجد عبد الملك عناء شديدا فى اقناعه بأن فى اليمانيين من لا يقل شأنا عما ذكر ، وفيهم على أى حال من الشعراء امرؤ القيس ، ومن الخطباء قس بن ساعدة ، ومن السجاعين شق وسطيح .

وقد انبرى أحد المرافقين ــ ويدعى سهل بن هارون ــ بعد أن سكت عبد الملك فندد بمن يعنى بهذه التفرقة . وادعى أن ما ينسب الى كل من عـدنان وقحطـان فيه من تزيد الرواة ما لا سبيل الى انكاره ، لكن الأجدى أن يطال النظر فيما دوّن فى كتب الأعاجم الباقية ، وترجم بعضها ابن المقفع قبل مقتله .

وأسكته عبد الملك ، وحمد فيه ذلك عمرو . فان سهلا من موالى يحيى البرمكى فيما يبدو ، أو هو من بنى الأحرار . ولحظ أنه كثير الاشادة بفضل الشعوب القديمة ، كما أنه يصدر عن بخل

ملحوظ ، ومع ذلك فقد أعجبه قوله : « سياسة البلاغة أشد من البلاغة ، كما أن التوقى على الدواء أشد من الدواء » .

هناك من الموالى غير سهل كثيرون ..

يملأون المساجد فى العراق ، ويروون الأخبار ، ويقصون ، ويفسرون القرآن ، ويسوقون الأشعار القديمة وربما اختلقوها .

وهاهم أولاء يسافرون ليلتقوا بالأعراب كما التقوا بهم فى المربد ، حتى يستطيعوا أن يفصلوا فى أمر البلاغة كما فصل فيها من قبل ابن المقفع ، وهاهم أولاء ينصحون بالتبين والتثبت وبالتحرز من زلل الكلام كأن العربية لغتهم .

هنالك تثور الدماء فى أعراق عمرو ، فيزداد اصرارا على التحصيل . ويروح يضرب هنا وهناك وحيدا فى أغلب الأوقات ، ولا يعود الا بعد أن يكون قد اطمأن الى أنه لم يخرج من البصرة عبثا .

وقد انتهز فرصة قيام قافلة الى بلده ، فكتب لأمه وأرسل لها شيئا ، كما كتب للأخفش ومويس بن عمران وأبى يوسف القاضى .

٥ ـ فى المعترك

وفى الجحفة ـــ على أربع مراحل من مكة فى طريق المدينة ـــ نزل الركب بعد سفر طويل ، حيث كان فى انتظارهم رهط من الأعراب تحدثوا طويلا عن الدارمى وشعره ونوادره وبخله،

وظرفه . وافتتن عبد الرحمن بن عبد الملك بمغامراته مع كواعب الحجاز ، وخاض مع عمرو فى حديث طويل عن المتفتيات [٨] اللائى كان الدارمى يهفو اليهن ، فيثرن عليه الجميع .

واشتعلت الدماء فى عروق عمرو .. لأول مرة يحس أنه يحتاج الى هذه العلاقة التى سعد بها الدارمى مع المتفتيات ، فأين هنّ ؟

ويسمع الى أعرابى يقول انه ـــ أى الدارمى ـــ اجتمع ذات يوم ببعض منهن هنا فى هذا المكان ، وربما فى ظل هذا الغيل ، أو ربما عند ذلك السفح المنحدر فى يسر .

وضحك عمرو بلا سبب ، غير أن صورة المتفتيات كانت تملأ عليه فكره ، وراح يتصور قدودهن وصدورهن وخصورهن ، والخمار الذى يريد أن يغطى محاسنهن .. ولكن هيهات ! يستطيع الرجل أن يعرف ما وراء ملابسهن ، ويناقش هو عبد الرحمن ، ويعطى له عبد الرحمن من الأوصاف ما يريد أو أكثر مما يريد ، ولم ينقطع الحديث بينهما الا بعد أن آمن بأن كل الذين سمع عن مغامراتهم النسائية محقون .

لكن أين هو منهم ؟

هو قبيح ، وهم على وسامة ملحوظة .. هذا شيء لا تخطئه العين ، وربما لو انفرد بواحدة اذا أتيح له أن يلقاها هنا فى الجحفة حتى وان كانت عجــوزا من صواحب الدارمى أو من بناتهن ـــ فالزمن بعيد بينه وبين ذلك الظريف البخيل ـــ لحسبته شيطانا أو مسخا أو جنيا ، ولولت مولولة !

الا أن عبد الرحمن يخبره بأن الرجل لا يقاس بجمال الا جمال الروح ، ويطمئن هو .. فان أكثر من فى الركب يجمعون على أنه طبع على نفس جميلة ! وهو يحدثهم ويأسرهم بحديثه ، وهو يلقى عليهم بقصصه فينجذبون اليه ، وهو برغم شوهته ينزل بينهم منزلا طيبا .

ويخرج هنا وهنالك .. فاذا كل شىء تغير .. زحف العمران حيث كانت منازه الدارمى ، وأقيمت الدور ، ولا أحد من النساء يسفر عن وجهه الا نفر من الأعرابيات يسرعن الخطو ليختفين كلما وقعت أنظارهم على أى رجل .

لكنه يفيد كما أفاد الرواة من قبله . وفى كل يوم كان يشهد جديدا ببصيرته ، وتعى حافظته من الحكايات والأخبار وشوارد اللغة ما لا تستطيع حافظة غيره أن تعى . وكان قد أخذ نفسه بشيئين : أن يجمع من أشعار الجاهليين وأخبارهم ما وسعه ، وأن يتعرف الى لغتهم وبيئتهم وحيوانهم ، واهتم بصفة خاصة بالحيوان .

وهكذا أضحى عمرو مشغولا بأكثر من عمل ، فلما آذن الركب بالعودة كان كمن خلق خلقا جديدا . وبدا شابا مفكرا معتزا بما لديه فى أعماقه وأوراقه ، ووعد عبد الملك وابنه عبد الرحمن أن يزورهما كل يوم فى دارهما الفارهة .

غير أن دخوله البصرة بعد نحو عامين ملأه غبطة ، وبعد أن سلم على أمه وأخته أسرع الى المسجد الجامع ، وهناك علم

بأشياء عجيبة . فأما صديقه ابن سيار فقد أصبح من رواد قصر مويس ، وقيل له انه يستطيع بسهولة مجادلة أهل الكلام والصابئة ويناقشهم ، وأما أبو عبيـــدة والأصمعى فقد رحلا الى بغداد فآثر الفضل بن الربيع وزير القصر ــــ الأصمعى ورد أبا عبيدة ، وقيل فى ذلك ان العرب ظفروا فى معركة من معاركهم مع الحمراء ، وأما سهل بن هارون فقد كان فى انتظاره رسول يستدعيه الى البرمكى ليؤمره على امارة من الامارات .

وهذه أشعار النواسى الماجنة تملأ المسجد الجامع ويرددها المسجديون ، وكان على رأسهم شاعر اسمه الجماز وراوية اسمه أبو هفّان ، وكلاهما حمل الضغن لعمرو ، لأن «خلقته» لم تعجبهما.

وقد غادر المسجد الى داره وفى نفسه كمد شغله طول طريقه ، فلم يملأ عينيه بالرياض والنهيرات والمباقل والكروم . ولم يستروح رقة الهواء على الرغم من هجمة الشتاء المفاجئة ، لا ولم يسمع الى غناء البائعين على سلعهم ولم يقلد هو أصواتهم كلما وجد نفسه على مسافة تبعده عن أى شخص يمكن أن يسمعه .

أتراه فشل ؟

لماذا يسأل هذا السؤال ؟

هل لأن صديقه ابن سيار قد جمع حوله القلوب وحظى بما لم يحظ هو به ؟ لقد كان موضع أنظار الجمع الذى جاب معه الجزيرة . لكن هذا الجمع محدود ، وأين عدده من هذه الأعداد المتزايدة التى تتردد على قصر مويس كل يوم ، وفيها المتكلمون

الذين لا يقدر عليهم الا الضالعون فى العلم ، والناظرون فى كتب الأولين ، والحافظون حكمة اليونان .

كأنه محتاج الى بداية جديدة .. بل هو محتاج حقيقة الى النظر فيما نظر فيه ابن سيار ، وليكن ما يكون . فان احتجت أمه على شيء فهو يستطيع أن يوفر لها المال ، ولما لم يكن شاعرا — وقد رجا ذلك عبثا — ولا كاتبا مع أنه يوطد عزمه على ذلك . فسوف يتجه الى الاتجار بأى شيء ، ولا داعى لانتظار عطاء من واحد كمويس ولا آخر كعبد الملك الهاشمى .

٦ ـ مع الأيام

فتن أبو عثمان عمرو — الشاب الصغير — بدار عبد الملك ابن صالح ، ولكنه لم يهمل قصر أبى عمران مويس بن عمران . وبين الاثنين كان يحضر مجالس آل سليمان ، وهم أبناء سليمان ابن على عم السفاح ، وأقربهم الى قلبه محمد بن سليمان وكان ذا نزعات عربية لا يتهاون فيها قط ، كذلك أخوه اسحاق الذى كان بيته مليئا بالأسفاط والرقوق والدفاتر والقماطير .

لكن عندما قلد الرشيد عبد الملك — وبينهما عمومة — امارة العواصم ، ورحل هذا الى حلب ومعه ابنه عبد الرحمن أحس عمـــرو بفراغ هائل ، وانقطعت صلته بالجـــوارى اللائى كان عبد الرحمن يقدمهن له فيعبثن به ويعبث هو بهن ، ويتحسسهن ويسألهن عن أعمق أسرارهن — وقد كانت تلك هواية تشبه هواياته الأخرى من مراقبة الحيوان الى تقليد الأصوات — التمس

المتعة فى قصر على بن سليمان حيث كان يجمع المغنين وعلى رأسهم الموصلى الذى كان جوهرة الموالى وأكثرهم حفظا للشعر الرقيق ورقم الموسيقى ، وكان يترك بغداد الى البصرة ثلاث مرات أو أربعا كل عام .

وعلى الرغم من أنه قوبل فى دار الهاشمى مقابلة سيئة فى أول الأمر — وبخاصة من الجماز وأبى هفان الذى اتضح انه صديق ابن سيار — فقد استطاع بمعونة أبى نواس أن يحتل مكانة مرموقة ، ويسيطر على الأفئدة بخفة روحه وفكاهاته التى لا تنتهى ، بل انه كان عندما يقسو على أحد لا يفقد صداقته ، والدليل على ذلك بيتاه اللذان قالهما فى الجماز عندما تراشقا بتهم « الأصل » وقال هو على البديهة :

نسب الجماز مقصور اليه منتهاه
تنتهى الأحساب بالناس ولا تعدو قفاه

ولما شوهد يبيع السمك والخبز فى سيحان وقال له أبو هفان « أن تعمل جمالا كجدك الأول خير من أن تبيع بيع النبط » قال له :

— يا ابن الفاعلة لأنت والله أحوج الى لسانى منك الى كفى ، ولكن لن أفعل حتى تكون لك فطنة اللئيم وغفلة العليم ، وأين هذا ؟

وعندما بلغ عليا نبأ هذه المساجلة قال له وهو يمزح مومئا الى أبى نواس :

ـــ أى صديقيك عندك أثقل عليك يا أبا عثمان ؟

قال عمرو :

ـــ تعنى الجماز وأبا هفان ؟

أجاب :

ـــ نعم .

قال عمرو :

ـــ والله ليس ابن هانىء بأثقل منهما على أى حال !

وضج المجلس بالضحك ، وكان من الحاضرين محمد بن على ابن سليمان أتى أباه زائرا فقال للحضور :

ـــ لو صبرنا عليه قليلا لجعلنا فى زمرة الثقلاء !

فقال عمرو :

ـــ حتى أعرف معدن الثقل أسكت يا أبا على !

قال محمد :

ـــ كأنى بأبى اسحاق يتكلم .

فصاح عمرو :

ـــ من تعنى ؟

أجاب قائلا :

ـــ ابراهيم بن سيار ، وكان يطرق مجلسى فى دارى قبل سفره الى حران ، وعساك تزورنا يا أبا عثمان .

قال أبو هفان :

ـــ عندما يعود أبو اسحاق ان شاء الله .

على أن هذا لم يكن ليصرفه عن الجد ، حتى وان كان فى دور الأبالسة ، فما بالنا بدور المهالبة والباهليين ـــ هذا من قبيل الاقرار بالأمر الواقع لأنه كان لا يحبهم ـــ وولد جعفر بن أبى جعفر المنصور وآل نوبخت الذين وفدوا على البصرة مؤخرا وفتحوا بيوتهم للأدباء ، والتقى عمرو عندهم بعلى البصير وعمرو ابن عبد الملك الوراق وأبى مسلم ، وعمرو الخاركى وابن أبى عيينة وابن يسير وابن مناذر وأبى الشمقمق الشاعر العجوز الذى كان يخافه بشار .

أسماء لأعلام كثيرة .. أصحابها مكدون وأثرياء ، وفيهم اللص والشريف ، وفيهم خبيث اللسان وعفيفه ، وفيهم الطيب الأصل والحقير المطعون فى نسبه ، وفيهم الرجل الذى يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء والرجل الذى يطلب الكأس والمرأة وحكايات المجـون ويجتمع بعصابات السوء ويطرق الحانات والأديرة .

وقد يجد عمرو نفسه يرتاد دكاكين الوراقين متصفحا ، ويجد نفسه مرات ـــ ولا سيما ليلا ـــ عـلى بساط خضرة يداعب كأسا ، ويتطلع الى غانية أو غلام ، ويرقص على لسان شمعة ساهرة .

وربما كان المناقش الفطن فى جلسة علم بالجامع ، وربما كان

النديم الذى يجيد فنون الأدب والمزح فى جلسة شراب عند آل سليمان أو آل نوبخت .

وبعد هذا ينفرد بنفسه يكتب ويمزق ما يكتب أو ينقل ويجوّد تقوله ، الا أنه يحرص دائما على أن يكون مع الاخوان دون أن يثقل عليهم ودون أن يضيقوا هم به . وقد يوصيهم بتحامى كل ما يجر الى الملاحاة والتفاخر بالحسب والنسب ، مع أنه فيما بينه وبين نفسه يضيق بتيه الحمراء والآزادمردية .

ووقع فى هذه الأثناء شىء كان له أبعد الأثر فى ثقافته وان كان هدفه الاساءة الى العرب أولا أو العمل على الحد من ثقافتهم التى انحصرت — اذ ذاك — فى تفسير القرآن ورواية الشعر .

لقد بدأ البرامكة فطرحوا فى دكاكين الوراقة تراجم لكتابات الساسانيين ، وعمل سهل بن هارون على نشر ما ترجم من حكم الفرس ، وفى الوقت نفسه كانت ثمة قطع فارسية من الـ « خداى نامة » والـ « آيين نامة » ثم ظهر فجأة كتاب « البيكر » بالعربية وبقلم ابن المقفع [٩] ، ودعت الآزادمردية الى قراءته فاذا هو التاريخ الأسطورى للفرس .. يمجد ملوكهم ويصف حروبهم ويتحدث عن سدنة نيرانهم ، ورغب عمرو فى الاطلاع على النص الفارسى فاذا فيه صور ونقوش غريبة .

وعلى الرغم من ارتفاع ثمن « الكاغد » الذى نقلت اليه هذه الكتب فانها كانت تحت يدى كل من يطلبها . وأفاد منها عمرو افادة عظيمة ، ودفعته الى التماس كتب ابن المقفع الأخرى ، وكان هو نفسه معجبا به أيما اعجاب .

ولما كان ذلك الكاتب قد نقل عن اليونانية أيضا — فيما يروى — فقد سهل اتصال عمرو بالفكر الاغريقى . وكان يرى فى كتابيه « الأدب الكبير » و « الأدب الصغير » شبها بما يروى عن أرسطو وسائر فلاسفة اليونان مما هو مذاع على أنه من كلام الناس المحفوظ .

على أن أصحابه لم يكونوا يدعونه يهنأ باطلاعاته تلك ، فاذا أصر عليها تطوع واحد منهم — وليكن أبا هفان مثلا — فزعم أنه لا يقرأ الرسالة أو الصحيفة أو الكتاب لأنه متعطش للمعرفة ولكن لأنه لا يجد ما يفعله . وعندما يقول له انه انما يتجر كما اتجر رسول الله ، يزيد فيقرر أن الأولين لم يقولوا ان القراءة تجارة .

ويمضى هو ..

ثم يعن له أن يجرب حظه فى وضع كتاب ، ويخطر له أن يؤلف فيما رأى أن يؤلف فيه وهو مع عبد الملك فى الجزيرة ، الا أن رسولا من هذا الأمير لا يلبث أن يأتيه ، فلا يمر يوم حتى يكون فى الطريق الى آسيا الصغرى وقد ترك جانبا ما شغل به نفسه أياما .

٧ ـ معارف جديدة :

صادف وصول عمرو الى بغداد خروج جيش الرشيد بقيادة الفضل بن يحيى البرمكى لمحاربة يحيى بن عبد الملك العلوى ، وكان هذا قد شق عصا الطاعة على أمير المؤمنين عام ١٧٦ وقويت

شوكته ببلاد الديلم . فلم يتعرف الشاب الصغير على معالم بغداد كما ينبغى ، وان يكن أخذ بكثرة قبابها التى كانت ترتفع على عمد دقاق ، ولفت نظره بوجه خاص قبة خضراء يسميها النـاس « تاج بغداد » وفى رأسها فارس رامح .

والشوارع مزدحمة ، والساحات غاصة بالحمير والبراذين ، وكانت الجمال تلوذ بالجدران كأنها تتوجس شرا من هذه الحركة المستمرة . ها هنا تظهر الملامح العربية ـــ كما يقول الأعاجم ـــ وتؤكدها العقـــل القليلة التى تتوارى خلف القلانس . وحتى الشيوخ كانوا يلبسون الطيالس السود ، وتقرطق الغلمان بقراطق الجوارى اللائى يحبهن عمرو ، ويغدون أمامه فى رقة ورشاقة .

وهذا قصر الخلد على شاطىء دجلة الغربى حيث ينساب الماء رخيا ونظيفا ، والجند ينزحون عنه جماعات ، ومن وراء قصور تشيد ، سمع عمـــرو أنها ليحيى البرمكى ولأولاده وسراريه . ثم اختلطت الصور ، فيقول عمرو لرسول عبد الملك :

ـــ تلك اذن بغداد مدينة السلام والعرفان .

فيقول الرسول :

ـــ أجل يا أبا عثمان .

فيقول ثانية :

ـــ لقد عرفت لماذا تشد الناس اليها .

وفى الرصافة على الضفة الغربية كثير من العسكر الخراسانية والأساورة ، وثمة بعض العرب . ودخلا الجامع ـــ وكان نظيفا

وان لم يكن فى عظمة جامع البصرة ــ وصليا فيه ثم تفرجا على دار الوزارة البرمكية شمالى الرصافة حيث الشماسية التى غدت المحلة الرسمية ، ومنها تصدر الكتب والأحكام .

وقد ودعا بغداد غير آسفين ــ فان عبد الملك خير من يقصد كما صرح عمرو لرسوله ــ ووصلا الى حديثة ، وهناك علما بنبأ عزل عبد الصمد بن على والى دمشق لفشله فى اخماد الفتنة التى نشبت بين المضرية واليمانية فى البلقاء ، وقابلا ابراهيم بن صالح الأمير الجديد ، وعدلا عن الاتجاه غربا الى تدمر ، مفضلين الضرب فى الجزيرة شطر ديار بكر عن طريق الفرات ، أو أحد فروعه تارة والبرارى والقفار تارة أخرى .

وبين صنوف السمك والحيوان وعجائب الخطط والآثار عاش عمرو أسابيع لم يعش مثلها قط .

رأى النار تنبثق من الأرض فجأة فى قفار سود ، فتذكر نيران العرب والعجم ، كما تذكر قول فلاسفة البصرة وبعض من وصل اليها من حكماء حران ــ التى سافر اليها صديقه ابراهيم ــ من كمونها وظهورها على نحو يختلف عن الضرام الذى يخرج من الشجر ، وعن الشرر الذى يخرج من الحجر .

كذلك رأى الثلج فى بقاع ليست شديدة البرد ، ولحظ أن بلدة ما قد تكون أبرد وثلجها أقل أو معدوم حتى كأنما الماء لا يجمد للبرد فقط .

وعلى طول النهيرات كان يقع على أنواع عجيبة من السمك والغرانيق والكراكى ، وفى السماء يلمح العقبان والصقور والغربان ، وفى البرارى الثعلب وابن آوى والخنزير والذئب والضب ، فكان يقول « قرأت أن الناس لا يضربون المثل الا بما يجدون من أصناف الوحش فقالوا أحذر من غراب ، وأسمع من فرخ العقاب ، وأهدى من قطاة ، وأهدأ من الليث ، وأكسب من الذئب ، وأخدع من ضب ، وأروغ من ثعلب ، وأظلم من حية » .

وحكى للرسول فيما حفظ عن هشام بن سالم — وهو من رهط ذى الرمة الراجز — أن حية أكلت مرة بيض مكّاء ، فجعل المكاء يحوّم فوق رأسها وهو يمكو أى يصفر صفيرا حسنا ، فاذا دنا منها وفتحت هى فاها تريد التهامه ألقى فيه حسكة ، ولم يزل يلقى فى فمها الحسك حتى أخذ بحلقها وماتت ، وأنشد الشاعر فى هذا :

ان كنت أبصرتنى فذا ومصطلما فربما قتل المكاء ثعبانا

وكان لابد أن يحكى الرسول بدوره لعمرو ، وعلى هذا النحو تعاقب القصص والنوادر ، وبعضها يأخذ برقاب بعض ، حتى وصلا الى منطقة الثغور وقد امتلأت أوراق عمرو بأطرف ما وقع عليه بصره .

كذلك دوّن أمورا عن بعض الأحجار والمعادن كالنوشادر الذى يصنع بتقطير الشعر وتدبيره وكان يقال انه لا ينبع الا من

عيون حمئة فى جبال خراسان ، والأرحاء العظيمة التى صنعت من حجارة سود أصلها رماد صنّع بطريقة خاصة ، والتوتياء التى دبرت من أقليميا النحاس ، والمرداسنج الذى يستخرج من طبخ الرصاص .

لكن بقدر ما عقد من آمال على لقائه لعبد الملك وابنه منى بالخيبة ، فقد كانت نفسه قد سولت له أن يتوج اللقاء بقصيدة ينشدها بين يدى القائد العظيم . واستطاع فى الساعات القليلة التى كان يفرغ فيها الى نفسه ــ بعد عمليات التدوين التى أصبحت لازمة له ــ أن يظفر بعدة أبيات تفوح منها رائحة ظنها تغطى على عيوب الفطرة وفجاجة الموهبة .

وكان يعرف تماما أنه قبيح ، وأن أى قوة فى الأرض لا يمكن أن تحمى مستقبليه من ثقل شوهته . ومن ثم كان لابد أن يعمل على التخفيف من هذا الثقل بالكلمة الحلوة ، ولذلك جعل استهلاله :

ألا رب يوم جميل ذهب   يعود بعودى بعد التعب

الا أنه لم يكد يردف بالبيت الثانى حتى أشار اليه عبد الملك قائلا وعشرة آذان على الأقل تنصت :

ــ ما تعبنا والله يا أبا عثمان ولم تذهب الأيام الجميلة .

فأطرق عمرو شيئا وقال وقد بهت :

ــ لعلى أخطأت .

قال عبد الملك :

ـــ بل أخطأك الشعر .

قال عمرو :

ـــ أنا أعلم أنى لست شاعرا ولكن الشعر كثيرا ما يكشف عن المستور .

قال عبد الملك :

ـــ اذن هات مستورك يا أبا عثمان .

فمضى في انشاده واصفا مجلس عبد الملك الذى سبده كوكب يضىء بنور المجد وأرضه سندس وحيطانه نرجس وأعلاه ذهب ، حتى قال :

وجئنا بما شـــاء من نادر فبدلته بالهموم الطرب

فقال عبد الملك مقاطعا :

ـــ أما النادر فلم نعرفه بعد ، ولكنى أرجو أن يكون فى مجيئك الطرب يا أبا عثمان .

وانطوى عمرو على نفسه مفكرا .. انه فعلا ليس مؤهلا لأن يكون شاعرا ، لكن مكانه باعتباره راوية حافظا ليس محل خلاف على الاطلاق ، فهل هذا يكفى ؟ وهل يكفى أيضا أنه يرصـــد ما يراه فى سفره ؟ ومن يدرى فلعله اذا حاول أن يقدم صـــورة لقدرته على الانشاد نجح وحقق ما ينشده ، غير أن هذا أمر يحتاج الى مراجعة مستأنية ، والطريق على أى حال لا يزال أمامه طويلا طويلا .

٨ ـ بين السياسة واللهو

لم يكد يمضي يومان على وصول عمرو الى حلب حتى خرج عبد الملك بن صالح الى الصائفة ليوقع بالروم ، وأناب ابنه عنه فى الامارة . فانتهى عمرو الى الاقتناع بأن ما ينبغى عمله انما هو التجول والقراءة فى النهار ، وأما الليل فقد كان للغناء والشرب والقيان ، على الرغم من أن عبد الملك كان يحظر الخوض فى أسباب اللهو .

لكن عبد الرحمن كان يقول ان أباه عندما كان فى بغداد ـــ منذ أسابيع ـــ خلع سيفه فى دار جعفر البرمكى ووضع سواده وعمامته ولبس ثياب المنادمة وشرب كما لم يشرب من قبل أحد ، ويعقب على الواقعة بهذه العبارة التى بدت غريبة فى أذنى عمرو :

ـــ أتراه كان يتوسل بذلك ليشد ظهر أخى ابراهيم بصهر من أولاد الرشيد ويوليه مصر (١٠) .

وكان عمرو يعلم أن أخا عبد الرحمن ـــ وهو غير شقيق ويقيم دائما فى بغداد مع أمه الفارسية ـــ أثير لدى أبيه على الرغم من أنه ليس ندا له فى امارته . وأخبره كاتب الأمير واسمه قمامة أنه يظفر به كثيرا كلما ذكر للبرامكة ، مع أن عبد الرحمن يؤكد أن أباه على هاشميته برمكى أكثر من الفضل وجعفر حاكمى بغداد الفعليين ، وأنه ساعدهما على رفع الحجر عن العلويين ـــ وهم المنافسون لبنى هاشم ـــ وبارك ادخال بنى سهل قصر الحكم برغم أنهم فرس ومجوس هذه الأمة .

وانكبتاه !

أهناك شيء بين الأب والابن ؟

وهل تتكرر حكاية يوسف النبى أو الأمـر نقمة من جانب عبد الرحمن على الآزادمردية ، ومن ثم فهو عائب على أبيه أن يرد معهم موردا واحدا ؟

وشرع يكتب ، ولكنه توقف . فهناك أشياء كثيرة لا يجد نفسه قادرا على تسجيلها فى الكاغد ، حتى لكأنه غير صريح تماما عندما يمسك بالقلم . وبرغم جهوده للانطلاق من أسر الممالأة فقد كان يحس أن عبد الرحمن الهاشمى على صواب فى حين يخطىء أبوه ، لكن الورق لا يتسع أمامه لهذه الحقيقة الكبيرة لأن وراءها أن يبعد هو عن علوية وزلزل سوى الجوارى اللائى يزحمن مجلس المنادمة .

وأراد أن يخرج الى السوق ، وكان مرافقه قمامة ثرثارا عظيما ، يقول كل شيء ولا يفهم الا القليل . ويحثه دائما على أن يستخدم الأسجاع ويتكلف الزخرفة ، كما يسأله أن ينظر الى الغلمان نظرة العاشق المدنف لأن فيهم فتنة . بل ان من فضل الغـلام عـلى الجارية أن هذه اذا وصفت بكمال الحسن قيل هى وصيفة غلامية أو كأنها غلام ، وأكثر من هذا قول الله تعالى « يطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون » ولم يقل يطوف جوار فاتنات .

واهتز عمرو ، ولم تستطع معالم حلب ولا تاريخها ولا ناسها ولا أشجارها وأنهارها أن تشغله عن دبيب الدم الذى يكاد يفجر

عروقه . ولقد ظن قمامة أنه أقنعه ، وكان هو قد اقتنع فعلا ، لكن اقتناعه كان فى موضوع آخر بعيد عما تكلم فيه قمامة وأسهب .

ان صراعا بين الأب والابن يوشك أن يقع . ولتذهب الجوارى والغلمان الى حيث ألقت رحلها أم قشعم ، لكن هل لم يعرف المأفون ــ أى قمامة ــ أن الله عز وجل ذكر الحور العين أكثر مما ذكر الغلمان ، وأن ريح الجارية أطيب ومشيتها أحسن وصوتها أرق وقلبه ــ قبل ذلك ــ اليها أميل ؟

وكان الزحام قد اشتد فى السوق ، وتجمع الناس فى قلق وعصبية وصراخ أمام الخوانك والدكاكين والعربات والحمير ، وراح عمال المحتسب يتحركون هنا وهناك ، ويضربون بعض المارة بالسياط ، فقال عمرو لقمامة :

ــ لنعد يا أبا عوف قبل أن تصيبنا سياط هؤلاء .

قال قمامة :

ــ وعلىّ هذه العباءة يا أبا .. .. ..

وسقط أحد السياط فوق ظهره قبل أن يكمل ، فكان أسرع من الهرة فى الفرار ، وأما عمرو فقد كان حانوت القماش خير ملجأ ، واضطر الى أن يدفع عشرين درهما كانت مما يدخره لأمه . وكان قمامة قد انتظر تفرّق العمال ، حتى اذا أمن الغارة ظهر يصب لعنته على الشرط الجهلاء .

ولكن عمرا قال ناقلا الحديث وجهة أخرى ربما كانت تشغله أو ربما وجد فيها مخرجا من ثرثرة قمامة :

ـــ أتنكر يا أبا عوف أن الأمير لسان لبنى العباس ؟

أجاب :

ـــ عباسيته فوق الشك يا أبا عثمان .

قال عمرو :

ـــ فلماذا يقال عنه انه برمكى ؟

قال قمامة :

ـــ وهل هناك تضارب يا أبا عثمان ؟

أجاب عمرو :

ـــ لا أعتقد ، وانما هى أشياء أهم بكثير من حديثك عن الغلمان والجوارى والحمير والمزح .

فقال قمامة :

ـــ لا تعرض بى يا أبا عثمان فاننى لأستجم نفسى ببعض الباطل ، كما يقول أبو الدرداء ، مخافة أن أحمل عليها من الحق ما يملها .

قال عمرو :

ـــ أرجو على أى حال أن تجعل باطلك ما يجرى فى حلب ، والرأى أن تتحدث مع الابن وأبيه .

فقال قمامة :

ـــ يا سيدى وأين نحن الذيول من الرؤوس !

وكانت تلك اشارة الى أن قمامة ينفض يديه من كل ما يجرى فى قصر منبج ، فقال له عمرو :

ـــ اذن فلنخض فى الباطل ، ولتنزل على رأسك الصواعق .

ـــ وحينما وصلا الى القصر وقد أقبل الليل ، كان قمامة قد انقلب انسانا آخر يتقطر أدبا ويذوب خجلا . فى حين اتجه عمرو الى صديقه فى غرفته الخاصة ، فقاما وصليا ، ثم أفضيا فى الحديث حتى جاء وقت الحجامة . واذا بحجام يقبل عليهما بمشرطه فيريحهما شيئا ، ويقدم اليهما الطعام فيأكلان ويغسلان أيديهما ويضمخان نفسيهما بالخلوق ، وبعد ساعة دعا عبد الرحمن حاجبه ، وقال :

ـــ فليبدأ الغناء ، ولا يدخل علىّ أحد .

وسرعان ما ارتفع من وراء الديباج ضربات شجية من آلة ذات أوتار ، وهمهمات رخية تقول :

ـــ يا مولاى .. أى الأصوات تريد ؟

فالتفت عبد الرحمن الى عمرو ، وهو يقول :

ـــ هذه درة اشتريتها من قنسرين .. كنت يومذاك لا أريد أن أزيد متاعبى بشراء جارية فوق العشر اللائى أملك ، لكن النخاس دفع الىّ بأبدع أديبة وأرق مغنية ، قولى أى شىء يا درة .

وانساب صوتها مع الايقاعات الهادئة ، وهنا صاح عبد الرحمن قائلا :

ـــ ارفعى الستار يا درة فهذا أخى أبو عثمان عمرو أكرم ضيف وأخلص حبيب .

وبأسرع من حركة الستار قال عمرو :

ــ على ألا تنظرى فى وجهه وتقولى أعوذ بالله !

وتم كل شىء على ما قدر ، وشغل نفسه بمتابعة الأجساد والسيقان وحركات الأذرع والأصابع ، ومال عليه عبد الرحمن وهمس :

ــ اختر يا رجل أى واحدة منهن غير درة ، فانها وحياتى سابقتك الى فراشك .

وعندما اختلى بمن اختار ، ارتكب أول معاصيه . فقد رأى أنه أهدر عشرين عاما فى لحظة طيش ، وأباح لنفسه أن يخطىء ، على أن عبد الرحمن قال له فى الصباح :

ــ انها غدت ملك يمينك فأين المعصية يا أبا عثمان ؟

٩ ـ ليس ابليسا !

لو امتد بقاء أبى عثمان عمرو عاما واحدا فى الشمال ، ورأى عبد الملك بن صالح يغزو أرض الروم حتى يبلغ أنقرة ويفتتح عمورية ويشهد الفداء [١١] بين المسلمين والمسيحيين فى طرسوس ، لرأى بنفسه ما ربما حوّله من مسامر ومنادم وراوية الى جندى .

لكن عمرا كان قد اضطر الى العودة الى البصرة عقب سماعه بموت أمه ، ولم يعد الا بعد أن زوجت أخته ، وفاته زيارة الرشيد لحلب ومنبج واغداقه العطاءات والهدايا على من قابله .

وكان فى صحبة الرشيد من ود مخلصا أن يلتقى به ، الا أن

الذى أدهشه هو وجود صديقه ابراهيم بن سيار مع الحاشية . وكان قد جاء من الرها مع بشر بن المعتمر المعتزلى الكبير ، وسمع عمرو أن مناظرة كلامية جرت بينه وبين هشام بن الحكم أمام أمير المؤمنين ووزيره يحيى بن خالد البرمكى ، وظهر هو عليه بما لفت اليه الأنظار .

كيف هذا ؟

أترى اختلط على القوم أمر العالم الحقيقى والمدعى المنتحل ، أم وصل صديقه بقدرة منه واستطاعة ؟

انه لا يأمن أن يجاوز ذلك السؤال الى الطعن عليه بقول أو اشارة ، فيوهم غيره بما يحب أن يوهم به نفسه ، ويومىء الى من يشد ظهره فى مجلس أمير المؤمنين من غير أن يستحق مجالسته ، أو التشرف بالتحدث اليه .

لقد قيل « كل مجر فى الخلاء يسر » (١٢) فهل وصل هو الى هذه الدرجة مع أنه أخذ نفسه بألا يحسد ، وألا يغمط حق الناس وينكر ما فيهم من فضائل ؟ ألا ما كان أصدق عمر بن الخطاب عندما قال : « ما أحدث الله بعبد نعمة الا وجدت له عليها حاسدا ، ولو أن امرأ كان أقوم من السهم لوجدت له غامزا » .

على أنه اذا كان حاسدا فليس شك فى أن صديقه المحسود أحسن لأن الحسن محسود وليس يعدم ذاما على الاطلاق ، فيا سوء ما آل اليه مصيره ! لكنه على أى حال لا يزال يستطيع أن

يعرف موضـع خطوته ، وسيسير . وفى أيامه الممتلئة بالثغور ـــ سـواء تلك التى قضـاها فى حلب أو قنسرين أو أنطاكية أو طرسوس ـــ أحاط بالكثير وخبر الكثير ، وأدرك أن القضية يمكن أن تصبح منافسة شريفة اختار هو حدودها من بعيد ، وليس ينبغى أن يفسح مجالا للعداوة لأن لهذه عقلا تسوس به نفسها فينجم قرنها وتبدى صفحتها فى أوقات الهتر ، وهذا شيء يرفضه .

وكان وراء ذلك كله عامة القوم ، يشغلونه ، ويخوضون فى الموضوع على نحو آخر .. من يكون هذا الشاب البصرى ؟ لقد فضح الرافضى ، لكن ألا يكون قد منح فرصة لم يمنح مثلها خصمه .. اننا لا نريد هذا ، فحسب أمير المؤمنين أنه افتتح حصن الصفصاف ، وعقد الصلح بين الروم والمسلمين ، وغدا يكون السلام .

وذات يوم ـــ بعد رجوع عمرو من أنطاكية ـــ وقف يتفرج على نخاس يبيع الجوارى وحوله جمهور من المشترين والفضوليين، وكان يقول :

ـــ هذه هى البضاعة الجوهر .

وصاح رجل بصوت حاد :

ـــ أهى أم بضاعة أمير المؤمنين ؟

قالت امرأة عجوز :

ـــ ما يقدمه أبو عبد الرحمن أثمن ولكن ينفس عليه !

وعجب عمرو ، فقد نمى الى العامة ما يجرى فى منبج اذن . فما عسى يكون الأمر فى غد ؟ وصاح الرجل ذو الصوت الحاد :

ـــ بضاعة أمير المؤمنين هى الأفضل .

قالت العجوز :

ـــ لا تسأل عن الأفضل واشغل نفسك بالقيان يا عبد الله .

وانصرفت متعجلة فقال النخاس وهو يشير الى البنات :

ـــ هن من حور الجنة .

وتذكر عمرو حديثه مع قمامة ، عن القيان والغلمان ، وعما يجرى فى منبج ، فقال :

ـــ أى جنة تقصد يا رجل ؟

فأجاب النخاس وهو يتفرس فى وجهه :

ـــ جنة أنطاكية يا ابليس .

فرفع عمرو يديه الى لحيته التى تفنن فى تشذيبها وقال دون أن يفقد زمامه :

ـــ أتريد أن تهيننى أم تهين ابليس ؟ ان كانت الأولى فوالله لا يقدر على ذلك عبد مثلك حتى وان كنت أبيض اللون وأنا أسوده ، فليس فى السواد ما يشين ، وقد شرف به سعيد بن جبير وأنت لا شك جاهل قدره فيما خوّف به الحجاج الثقفى ، وازدان به بلال مؤذن رسول الله ، والمقداد بن الأسود أول من عدا به فرسه فى سبيل ربه ، وعنترة بن شداد الذى شغلت عن بطولاته بابتياع القيان ، ولقمان الحكيم الذى كان يقول : « ثلاثة لا تعرفهم

الا عند ثلاثة : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند الخوف ، والأخ عند حاجتك » ولست واحدا من هؤلاء ولن تكون . وإن كانت الثانية فما أعلم أن بينى وبين ابليس ما يجعلنى أفزع الى الذود عنه وحماية عرضه ، وما يرضيه هو فيما أعلم أيضا أن يهب الى نجدته منك من يرى وكيله عندك ، وهو عقلك ، تحكمه على هواك وتلقى اليه أزمة أمرك ليسلك بك طريق الشوك ، ويسلمك الى الخسران .

عند ذلك صرخ الناس ، واجتمع بعضهم عليه يشدون جبته ويدقون على يده . ومن بين الجموع برز اليه شاب حسن الهندام جميل السمت وراح يقول له :

ـــ اسمح لى أيها الرجل ، فلعمر الحق ما فى الأرض أبدع مما شهدت ، وأنا فى مثل هذا ، وأبى قاض ويعدنى لأن أكونه ، حكم ترضى حكومته . ولقد شهدت من براعتك ما يجعلنى أقول : انه أنت ، فاذا صدق حدسى فلن تكون الا الجاحظ الذى لهج بذكرك أصدقاؤك فى جامع البصرة ومريدها .

قال عمرو :

ـــ هو أنا عمرو الجاحظ فمن تكون ؟

أجاب الشاب :

ـــ أنا .. أنا محمد بن أحمد بن أبى دؤاد وأكنى أبا الوليد .

١٠ ـ فى المسجد الجامع

فى سنة ١٨٢ وقعت عدة أحداث كان من الممكن أن تقلب خطط عمرو الجاحظ رأسا على عقب ، ولكنه تماسك وأسرع

الى البصرة راضيا من كل الغنيمة بالاياب . فلقد بايع الرشيد لابنه عبد الله — وابن مراجل الفارسية — بالعهد بعد أن ظن الناس أنه خص به ابنه محمد الأمين . وعندما رجع عبد الرحمن ابن عبد الملك من أفسوس فى غزوة الصائفة وأوقع بجيش قسطنطين وهز عرشه ، قبض عليه أبوه لأنه خاض فى ولاية العهد بحديث لم يرقه ، وان كان قد نزل بردا وسلاما على قلوب أم جعفر زبيدة وأخيها عيسى بن جعفر والفضل بن الربيع — وهم يشكلون الحزب العربى مع جماعة بنى هاشم فى قصر الرشيد — فسعوا لدى عبد الملك الهاشمى بالعفو .

وكان دخول عمرو الى البصرة — وقد ترك حلب كالهارب — فى الهاجرة وعرفه القوم .. العينان البارزتان ، والقامة القصيرة ، والأذنان الصغيرتان ، واللحية الدقيقة ، وكانت الجبة قاتمة والعمامة بيضاء مضطربة ، وفى القدمين نعلان غاليتان ، وأما قلبه فقد تركه للجارية التى وهبها له عبد الرحمن ولم يتمكن من اصطحابها .

ان احساسا بالمرارة يجتاح أعماقه ، ولكنه بدا منفرج الشفتين يتسلى برؤية المزدحمين ، واسراع الحمراء بقلانسهم فى تيه عجيب ، وكأنهم راضون بحركة الرشيد التى تنطوى على نصر للفرس . وفى سيحان رأى قوما من البرامكة يتظاهرون بفضل يحيى بن خالد الذى حفر نهرا ، وأقام سوقا ، وشيد عمارات ، وتقدم اليه قاسم التمار وقال وهو يعانقه :

— هأتنذا يا أبا عثمان .

فصرخ عمرو قائلا بفرح :

ـــ أجل هأنذا فكيف أنتم ؟

أجاب قاسم :

ـــ لا نزال نعيش ولكنى والله ذهب منى الأطيبان !

قال عمرو :

ـــ الأطيبان يا رجل ؟ وأى شىء الأطيبان ؟

قال :

ـــ قوة اليدين والرجلين .

قال الجاحظ :

ـــ أعرف أنهما كانا الشباب والقوة ، فمتى صارا هكذا ؟

أجاب :

ـــ اليوم أو أمس لا أدرى !

وضحك الصديقان ، وان اختلفا على سبب سرورهما . فأما عمرو فكان فى نفسه من غفلات صاحبه ما وجد فيه تفريجا وتأسية ، وأما قاسم فكان يظن أنه وقع على الشاردة . وضربا فى الشوارع قليلا وهما يتذاكران رحلتهما الأولى ، ثم ألم عمرو ببيت أخته فى حى بنى كنانة ، وفى الطريق الى المسجد الجامع قال قاسم :

ـــ قل لنا الحكاية .

ـــ أية حكاية ؟

ـــ حكاية أسفارك حتى لنظن أنك تكره هذا البلد .

ـــ بل أحبه ، ولكن فى السفر افادة .

ـــ كما أفاد رجالنا .. الأصمعى والنــواسى وأبو الهذيل وابن الضحاك الخليع وابراهيم بن سيار ؟

ـــ لا أظن ، ولكن هل عد ابراهيم من الرجال يا أبا يعقوب .

ـــ انهم يقولون انه زهرة البصرة ، وفى دار أبى عمران يعقد مجالس المناظرة ، ويظهر على أهل النظر والجدل .

ـــ اذن لنعدل عن المسجد الى دار أبى عمران ، فلى شوق الى أن ألقاه ، ولينتظرنى أبو يوسف يعقوب الى غد لأذاكره حديث رسول الله .

ـــ لا أرى أن نذهب الى دار أبى عمران الساعة .

ـــ لم ؟

ـــ لأنه فى المسجد الآن يشهد ابن سيار فى مجلس جدل وعدنا به أمس ، عندما أخبرنا أن الحسينية جارية الرشيد ظهرت عليه .

ـــ ماذا تقول .. كيف ؟

ـــ لا أدرى ، ولكن يقال انه سألها فى ثمانين مسألة (١٣) فأجابت عنها بحضرة الخليفة ، ثم سألته عن مسائل فلم يقدر على جوابها .

وبقدر ما امتلأ صدر عمرو سرورا بعد أن سمع عن انكسار صاحبه ما سمع ، تشوّف الى لقاء الحسينية . فلابد أن تكون قد

وصلت الى مستوى من الفكر والثقافة لم يرق اليه ابراهيم ، ومعنى ذلك أن ما يظنه كمالا فى بعض الأحيان ليس كمالا ، وما يوضع موضع التقديس ليلا لا يلبث أن ينهار اذا طلع عليه النهار ، وتلك هى الحياة .

ودخلا الجامع ، وبدأ عمرو فعانق الأخفش عناقا حارا ، واحتضن برفق شاعرا اسمه محمد بن يسير وسأله عن أبى نواس فذكر له أنه ارتحل الى بغداد ومعه أبو هفان الذى أصبح وراقه وراويته ، وتحلق حوله أصدقاؤه المسجديون ، فراح يشد على أيديهم ، وأصواتهم تملأ صحن الجامع فتمتد العيون اليه من بين الأعمدة الكثيرة التى يرتفع عليها السقف الكبير .

وثمة وجوه بيض وأخرى سود تلمع ، والقلانس تختلط بالعمائم وعشرات النماذج من الملابس السندية والشامية والعراقية والبدوية . وسعى عمرو حتى لمح أبا عمران ، وكانت نظرة واحدة منه الى حيث يجلس كافية لتكشف له عن خطورة الموضوع الذى يثار ، وعن يمينه كان أستاذه المحدث أبو يوسف يعقوب شاحبا يبدو عليه الارهاق ، وثمة شاب يقف ويقعد ، فيه مرح وعلى وجهه ذكاء .. انه هو صديقه ابراهيم ، وقد نما وطال عوده ودقت لحيته ، وبدا أكبر سنا مما هو عليه . وكان أبو الهذيل يتطلع نحوه وهو يبتسم ، ويهز رأسه حينا بعد حين .

وتلاقت العيون ، لكن الحديث لم ينقطع ، وكان ابراهيم يقول فى حماس :

ـــ ان خبر التواتر لا يضطر ، لأن كل واحد منهم يجوز عليه الغلط والكذب ، وكذلك يجوز على جميعهم . ومن المحال أن يجتمع ممن يجوز عليه الغلط وممن يجوز عليه الكذب من لا يجوز عليه الكذب (١٤) .

وارتفع ضجيج من بين الجالسين ، فى حين اتخذ عمرو مجلسه بجانب شخص عرف منه أنه اسماعيل بن غزوان أحد أصـدقاء أبى عمران وعاشق احدى جواريه ومن أشهر مرتادى مجالسه فى داره ، فسأله :

ـــ فيم يتحدثون ؟

أجاب :

ـــ بين أبى يوسف وأبى اسحاق أشياء فى الحديث ورواية الخبر .

ودار رأس عمرو . فهل وصل ابراهيم الى حيث يناقش مثل أبي يوسف القاضى ؟ حقيقة ليس للسنور كبير نفع ، بل ربما كان كثير الأذى حتى لتربى على منافع الكلب ، ولكن أنى له بهذه المعرفة الفقهية التى تدفعه الى أن يتكلم على ذلك النحو من الثقة ؟ واستمر يقول :

ـــ وقلتم فى سؤر السنور وسؤر الكلب ما قلتم ، ثم لم ترضوا به حتى أضفتموه الى نبيكم صلى الله عليه وسلم .

وعلا صوت من بين المتحلقين يقول :

ـــ أوليس نبيك يا مارق ؟

ـــ وصاح ابن غزوان وهو يتطلع الى ابراهيم وقد سكت :

ـــ أفكان يطعن ؟

ولم يتلق اجابة ، لأن الأمور اختلطت بعد ذلك . فقد اندفع ابراهيم نحو عمرو ، وهو يصرخ فى فرح صادق :

ـــ مرحى بالجاحظ مرحى !

وغمغم عمرو تأدبا ، الا أنه لم يستروح منه نعته اياه بالجحوظ ، ألأنه وسيم طويل وأنا .. أنا الحدقى الأسود القصير من دون الناس جميعا ؟ لكنه من الحمراء ، ويستحق لذلك أن يجلد لو خلى بينى وبين ما أريد أن أفعل ، أو أمسخه سلحفاة تدب كالمختالة بدرقتها المزركشة أو أليق به « البيش موش » الفأرة التى عندهم وتغتذى بالسموم فلا تموت ويموت منه غيره . ومع ذلك فهو يقبلنى ، لا ضير ، انه تائق لى ، وحافظ لأيامنا الأولى .. ما أبعدها !

ـــ ها قد زدت بسطة فى الجسم والعقل يا أبا اسحاق ، وسأظل أنا دونك حتى يلج الجمل سم الخياط .

وضحك بقوة ، ثم أقبل على شيوخ الحلقة فحيا وقبل الأرض بين أيديهم ، وكان أبو عمران أكثر الحضور احتفاء به .

١١ ـ المفاجأة

ولم يطل جلوس أبى عثمان عمرو الى أبى يوسف كثيرا ، وانما هى أشهر قليلة فارق القاضى بعدها الحياة . وعد أكثر

المتصلين بعمرو هذه الوفاة منّة من الله عليه ، كأنهم استبشعوا أن يتفرغ لما لم يهيأ له على الاطلاق .

فهو لا يملك سمت المحدثين ، ولا له تقواهم وبرهم . وهو الى المتكلمين أميل والى جدلهم أحب . ومن ناحية أخرى لا يكاد يعف ، ويفتقد القدرة على منع لسانه من أن يلغ فى دماء من يعرفه ومن لا يعرفه ، بل قد ينتهى به الأمر الى التعريض بنفسه هو .

وعلى الرغم من أنه راح يجلس بانتظام الى أبى عبيدة معمر ابن المثنى وأبى زيد الأنصارى يتلقى عنهما اللغة والنوادر والغريب والملح ، والى الأخفش يأخذ عنه النحو ويسمع الى آرائه فى عروض الخليل وكتاب العين الذى وضعه ، كذلك على الرغم من حرصه على مخالطة أبى الهذيل والاستماع اليه وهو يبدى آراءه فى ذات الله والقرآن والنفس والحواس ، وفى أساتذته من أمثال عمرو ابن عبيد وعثمان الطويل صاحب واصل بن عطاء .. فان عمرا لم يقلع عن مخالطة عابثى المسجديين والمربديين كالخاركى وأبى الفضل والجماز وقاسم التمار ، وعندما كان يسأله اسماعيل ابن غزوان عن سبب اصراره على ذلك يقول :

ـــ ألا ترى أنك وأنت تنشط لمثل ما يقول أبو الهذيل أو الى ما يجرى فى دار صاحبنا أبى مويس تأخذ نفسك بشىء من اللهو مع جاريته ؟ انى والله لمثلك ، ولولا أنى أجد الى التلهى سلما لما حببت سوء حالى الىّ ولما شوقت نفسى الى رضى وشيك ومتعة قريبة .

وحدث فى هذه الفترة أن مر بالبصرة حاجا صديقه عبد الرحمن ابن عبد الملك الهاشمى ، وكان من الممكن أن تقتصر المقابلة على التحية والاعراب عن الشوق أو قد تزيد الى ارتياد حانة وتجميش ساقية ، لولا أن أخبر بأن « جاريته » التى وهبت له فى الشهر الأخير من الحمل .

فقد أصبح عمرو اذن أبا ..

هكذا بسرعة ، ودون أن يتخذ للأمر أهبته ، وبلا أية ضرورة لأن يكون له ولد وهو لا يزال عالة على عطاء الأشراف وان كسب من كده فهو النادر الذى لا يكاد يحفظ رمقا .

ان أبواب الرزق محدودة يا عبد الرحمن ، ليس أمامى فحسب وانما أمام غيرى من أعلام البصرة أيضا .. أبو عبيدة نفسه ، والأخفش ، وأبو الهذيل ، حتى صاحبى ابراهيم أصبح ينظم الخرز فى أسواق البصرة ، وأخبرنى أمس بعد أن خلونا لأنفسنا أنه جاع حتى أكل الطين وباع قميصه ليطعم من ثمنه .

لكن أحملت الجارية منه ؟

هذه مسألة لا يمكن الزعم أن الاخبار بها حجة يلزمنى بها عبد الرحمن ، فربما كذب ، بل قد يكذب غيره على النحو الذى بسطه ابراهيم فى معرض حديثه عن خبر المتواتر ، وفى هذه الحال لا يمكن أن أقبل الدعوى أساسا .

وكأنما كان عبد الرحمن يقرأ أفكاره ، لأنه قال له :

ـــ لقد أخبرتنى أنك أحسنت المضاجعة يا أبا عثمان ، فاهنأ بقطعة منك ، وسبحان البديع الخلاق .

وبوغت عمرو ولكنه قال بلا تفكير :

ـــ يا عبد الرحمن ادع لربك فى البيت الحرام أن يكون لولدى ـــ ان جاء ـــ عقلى وصورة أمه ، فقد استدللت بالذى أراه عدلا ولا يصرفنى عنه فرط تهاونك وعدم اكتراثك .

قال عبد الرحمن :

آن لك أن تبنى بها على الملأ !

يا للكارثة ..

ويصبح الحدقى أو الجاحظ أو عمرو الذى يدور هنا وهناك ويرتاد المجالس مربوطا بامرأة يعرفها الناس ، ويقول بعضهم اذا رأى بهاءها « ما أجدرها بواحد مثلى ينسيها شوهته ويحبب اليها الفسوق » واذا كان على تقوى مؤرق العجلى أو سفيان بن عيينة قال « يا هذا ، مثلك فى أدبك وحسن معرفتك لا يرضيه أن يعرضها للتهمة ويقفها موقف سوء ، فعليك اتقاء الله » ويقول ثالث .. لكن مهما تكن الأقوال فان جماعات أهل الحكمة يرون أن واجبا على كل حكيم أن يحسن الارتياد لموضع البغية ، وأن يحدد أسباب الأمور ويمهد لعواقبها ، فانما حمدت العقلاء بحسن التثبت فى الأوائل لأنهم يعملون عند استقبالها بحسب ما تؤول به الحالات فى استدبارها ، ولأكن حكيما يا عبد الرحمن .

ولقد ودعه وهو يعمل فكره فيما قد تأتى به الأيام وفيما قد يروض نفسه حتى يذللها على تقبل الآتى ، لأنه سبب من أسباب بقائه . وهذا ما ينبغى أن يقدر على وجهه الصحيح ، ففيم الجزع ولمه ؟ وأى انسان لا يخطر بباله أن العالم على خلاف ما يرجوه دائما ان من المأثور أن ما يشتهى عسر المنال .

١٢ ــ الاغراء

صحا الجاحظ ذات يوم على نبأ يقول ان كتاب « الأصــول الخمسة » الذى نشره مؤخرا أبو الهذيل فى أصول الاعتزال وعلومه لكى يعترف من يقرؤه بفضل هذه الجماعة حاملة لواء العلم والكلام فى البصرة ، يطعن فيه هشام بن الحكم الرافضى ، ويزعم أن أكثر ما فيه له هو ، وعلى هذا لابد من طرح القضية أمام نخب العلماء فى المسجد أو فى نادى أى دار من دور آل سليمان أو آل جعفر .

وتحير عمرو ثم دفعته مقابلته لصاحبه ابراهيم النظام الى سلسلة من الشكوك والتساؤلات . وقد ذكر له صاحبه وهما معا فى الطريق الى العلافين لمقابلة أبى الهذيل فى داره أن بين المعتزلة والرافضة تأثيرا متبادلا لكثرة ما ينشب بينهما من المناظرات ، وأنه اذا كان لهشام ـــ على سبيل المثال ـــ كتاب فى الرد على الثنوية فسيصدر عن المعتزلة كتاب مثله يتولى هو ، أى النظام ، كتابته .

وازدادت حيرة عمرو . فقد اختير صاحبه لتلقى اليه أزمة أمور هذه الجماعة ويكتب باسمها ، وأما هو فلا يزال يبحث عن

طريقه ولا يزال يساير ويروى النوادر ويحاول الكتابة فلا يستطيع . وان استطاع ، فلا يخرج ما يكتب عن كلمات ابن المقفع وابن عطاء والحسن البصرى .

هيهات ..

ما يكاد ذو التكلف يخفى على أهل الغباوة ، فكيف على مثله من المتصفحين ؟ وكأنه يعلم ما فى صدرى وان أخفته المؤانسة به فيدعونى الى الاتصال بخاله لأتثبت وأعرف طريقى ، لكنى الى غير ما ينشده راغب ، ومن تمام شكرى لربى ولى كل نعمة الشكر له على دعوته ، ثم يكون التمام فى الاذن بالانصراف الى المسجد أو الى المربد .

قال ابراهيم :

ـــ كلا يا أبا عثمان ، فلن أدعك حتى تحضر مناظرة اليوم وسيشهدها فى فناء الدار بالعلافين كثيرون من علية القوم فى بغداد والكوفة والبصرة .. ثمامة وبشر والكسائى وسهل بن هارون وأبو نواس وأبو العتاهية وأبان اللاحقى ومسلم بن الوليد ، وربما حضرها جعفر البرمكى ان غاب عنها الفضل ابن الربيع الذى يقال انه اليوم فى ضيافة آل سليمان بالمربد .

قال عمرو :

ـــ فيم هذا يا أبا اسحاق ولم أزل أبقاك الله بالموضع الذى تعرف من جمع الأخبار والكتب والنظر فيها ؟

وعادت بعمرو الى الوراء ذاكرته ، وعرض له صدامهما القديم فأحس بالهوان . فقد مكن الله لهذا النظام من أسباب المقدرة ومهد له فى تمكين العلم مالم أنحله بأية حيلة ، ولا بلغته بتقرب أو بتفقه أو بتصيد كل عجيب ونادر . على أنه تعالى يؤثرك بفضل دونى ، أو لعله مكنك ليبلو خبرى ويختبر شكرى ويحصى أثرى ليوفينى أجرى . فليكن ذاك زادى حتى يقع أمر كان مفعولا ، والا فهل من العقل أن أغبن حظى من دينى ، وألا أجهد حتى يكون أغلب أفعالى الطاعة مع الندامة عند الاساءة ؟ وأرجو أن لا أندم .

وكانا قد دخلا العلافين مقتربين من دار أبى الهذيل ، وهنا قال النظام :

ـــ استعد يا أخى لأمور عظيمة وليوفقنا الله !

١٣ ـ مجلس من المجالس

لم يسفر اجتماع أبى الهذيل وابن الحكم عن شىء ذى بال ، غير أنه ترك أثرا أو آثارا فى نفس عمرو . فضلا عن احساسه الزائد بالغيظ ازاء اصرار المتناقشين على مناداته بالجاحظ خلال خوضه معهم فى الحديث الذى أكد قدرته على الجدل ، رأى أن من الضرورى ليكونوا أكثر اقتناعا التخلى عن أقوال حكماء الاغريق وآرائهم ـــ وان يكن أعجب بأرسططاليس ـــ وطرح التشديق وبعد الصوت والمعاظلة والتصعيب الى الوضوح والسهولة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . ولو هيىء لأحد أن يبلغ من بيان لسانه ولطف مداخله واقتداره على نفسه أن يفهم

العامة معانى الخاصة ويكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء ، لأصبح البليغ التام .

لكن الجدير بالعجب فى هذا كله أنه كان من بين المتكلمين من أدركته حرفة الأدب فعلا ، الا أنه لم ير فيهم أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب ـــ وكان على رأسهم : سهل بن هارون وابراهيم ابن المدبر وعمرو بن مسعدة ـــ فانهم بدوا أمامه على النحو الذى يرجوه لنفسه من الدقة والاصابة والبعد عن التوعر والسوقى .

وفى الوقت الذى أعجب فيه بسهل ـــ وقد رآه معتدل القامة مقبول الصورة حسن الاشارة بعيدا عن الفدامة حتى لكأن النظام صاحبه صورة منه ـــ أحس كراهية بالغة لأبان اللاحقى الذى قدّم على سائر شعراء المجلس لأنه نظم ليحيى البرمكى فى بغداد « كليلة ودمنة » شعرا ، وأعطاه لذلك عشرة آلاف دينار .

لا مجال للموازنة بين الرجلين ، وليس ايناسه بسهل راجعا الى قدم معرفته به ـــ فقد التقى به من قبل فى رحلة الجنوب ـــ وانما القضية أن أبانا ينتحل الأدب والشعر والعلم ويستطيع غيره ـــ وليكن هو نفسه ـــ أن ينظم كل كنوز العربية ويأخذ ألفا فقط أو حتى ألف درهم !

لكن الى أين يا أبا عثمان ؟ فأنا لم أر ظالما أشبه بمظلوم من حاسد نعمة ، فان كربى دائم . وما أريد هذا ، لأننى أعلم أن المقصر فى صناعة العلم هو الذى ينتقص كل ما يرد عليه من منظوم وغير منظوم ، ولكأن هذا الشاعر الكوفى الآخر ـــ مسلم بن الوليد ـــ

يريدنى وهو يقول بعد أن أفضت الجلسة الى الشعر « يخيل الى نوكى الشعراء أنهم لا يقضى لهم بجودة الشعر الا بهجائى والطعن فى شعرى ولسان يهجى به عرضى » لكننى لم أتنقص من نظمه وانما أسأل لماذا لم تتح لى هذه الفرصة ، هل لأنى عربى وهو من الحمراء ؟

انه منذ استولى آل برمك على مقاليد الحكم فى بغداد وكل شىء يخرج من صعب الى أصعب ، برغم الهدوء الذى يسود جميع ربوع البلاد . فالسلالات الكبيرة من الأموية والعلوية والخوارج قاتلت الى أن أنهك القتال قواها ، وها هم أولاء حكام بغداد — وفيهم الآزادمردية — قد تفننوا فى ابتناء القصور واقتناء الجواهر ، ويعاقرون بنت الحان فى دعة واسترخاء ، ويخرجون الى القنص ما لم يجدوا شيئا يفعلونه وقد زهدوا فى الاستماع الى أمثال أبى نواس وأبى العتاهية ومسلم وأبان .

وبمثل صعوبة الموقف صعبت حياتى ، حتى وان طلبنى للمسامرة والمذاكرة عبد الملك فى الثغور أو محمد الهاشمى ومويس هنا ، وينتهى الأمر بأن أطالب بتهيئة نفسى لأكون من المعتزلة وأقرأ على النظام — كما اقترح أبو الهذيل بخبث وأيده بشر بن المعتمر الذى يغمزه ويلمزه من حين الى حين — كتب الاعتزال .

هم يعيشون هذه الحياة الناعمة بفضل الأموال التى تعتصر من العامة بغيا وظلما ، وبفضل دروس العلم التى تستقى من

« خداى نامة » و « آيين نامة » والأدبين الصغير والكبير اللذين كتبهما ابن المقفع كما كتب كليلة ودمنة .

هم يتبارون تباريا عنيفا فى اجتذاب النابهين من غير العرب الأصلاء ، واذا كان قد قبل بينهم واحد كالأصمعى — وهو العربى القح — فلميزات خاصة أو لظروف شاذة ، فمن أكون أنا ، مع أن فى وسعى أن أبتكر لكل بلاط شيئا طريفا يناسب ظروفه وطبيعته ؟ أنا قادر ، وهم يعلمون أنى قادر ، الا أنهم ينصرفون عنى عامدين .

١٤ ـ ساعة لهو

كان عمرو يحلّق بأفكاره فوق منبج محاولا أن يقدر للمستقبل أمورا وأمورا عندما دخل عليه أبو نواس بصحبة محمد بن مناذر ، فاستقبلهما باشا وراح يقول :

— فاسقان معا فى بيتى !

قال ابن مناذر :

— ألى يقال هذا الكلام ؟

قال :

— مادمت عالقا بعبد الوهاب الثقفى .

وقال أبو نواس :

— وأنا .

قال عمرو :

ـــ ظريف ولكن ..

قال أبو نواس :

ـــ لست كالجماز تنال منه يا أبا عثمان !

قال عمرو :

ـــ هذا العيار السليط تنشط لمثله يا ابن هانىء ؟

فقال أبو نواس :

ـــ بل أنشط للأعلام وأكسفهم ، وقد بدأت باللاحقى ، أترى يرضيك أن تسمع حكايته ؟

قال عمرو :

ـــ اتركه فى ركوب الفواحش واتنياب الحانات ومنادمة السفلة والسوقة .

فقال أبو نواس :

ـــ عندما قصدت بغداد وعرضت بضاعتى على آل برمك نفس علىّ أبان لسموى وشرف قولى ، وعندما جالسته خرجت من مجلسه بنونيتى التى رميته فيها بالزندقة [١٦] فراح يدس لى عند جعفر بن يحيى ، وبخاصة بعد أن عرض علىّ جعفر كلبة لأسميها له فقلت « قد سميتها أم أبان » . ولما قدم الفضل من خراسان سأله جعفر أن يجعل أبانا على عطاء الشعراء وتمييز ما يهنَّأ به من الشعر ، ففعل ، وأعطاهم على مراتبهم وطبقاتهم . فلما جئت لقبض جائزتى أعطانى درهمين ، فرفعت يدى وصفعته قائلا « سارق غلة أمه ، قد بلغنى أن أمك كسبت عشرة دراهم

فختنتها » فضحك الفضل وقال لجعفر : « مر أبانا ليصالحه »
ومنذ ذاك وهو يهش فى وجهى ويمتدح قولى حتى ما فيه من
عبارات المتكلمين التى سألت توضيحها .

وهنا قال ابن مناذر :

ـــ هذه شهادة طيبة ، فهم يقولون : ان أبانا خير حكم ، وهو
فوق الأرض ، من كثير من رجالات بغداد .

قال عمرو :

ـــ هذا اعتقادك ، ولا أدرى ما أقول لك فيه ، ولكنه جعل
قرة عين آل برمك ، وهو غير جدير .

قال أبو نواس :

ـــ ليكن ما شاء وشاؤا أن يكون ، بيد أنى أروى لأبى عثمان
من شعرى ما يحفل بألفاظ المتكلمين عساه يحفظه ويثبته فى
أضابيره ، سأسمعكما فى الغزل ، ولكن لا حاجة الى هذا الآن
بقدر حاجتنا الى أن ندلج الى الطفوف فان بها حانة رفاعة ، وهى
غير بعيدة من قصر أنس بن مالك ، ولم أر مثلها قط فى نظافتها
وطيبها وحسن شرابها ، وأنا أشتهى أن أسكر وأقيم بها أياما
بعيدا عن العلم والسياسة وتدبير من يدبر .

قال عمرو :

ـــ أن نمضى معك الى الموضع الذى وصفت فلا اعتراض ،
وأنك تريد البعد عن السياسة والعلم فشىء من خاصتك ، لكن
ماذا تعنى بتدبير من يدبر ؟

قال أبو نواس :

ـــ يا عم للناس تأس وعادات وتقليد للآباء والكبراء ، لكن لم يعلمونا أن نخوض فى أمر الدولة بما يخوضون ، فلنبتعد !

ثم خرجوا ، وأشرفوا بعد حين على البطائح ليروا أشجارا وكروما لم يروا مثلها قط نزهة وحسنا . وكانت أنهار البصرة تفيض هنا وهنالك ، وتغور فى الأرض ، فتنبت الأعشاب الخضر والصفر ، وتملأ العيون بهاء . وما وصلوا الى حانة رفاعة حتى قوبلوا بعاصفة من الترحيب ، فثم الجماز وداود بن رزين الواسطى ، وعمر الوراق والحسين الخليع ومسلم بن الوليد . وانقبض عمرو قليلا ، غير أنه لم يلبث أن اندمج وانبسط . وقد بدأ رزين ـــ وهو راوية لشعر بشار ـــ فأنشد ما يحفظ على الأقداح الدائرة ، فقال الوراق :

ـــ ألا يذكركم اجتماعكم هذا بشىء ؟

فقال مسلم :

ـــ بالجنة التى وعد الله بها المتقين .

فقال عمرو :

ـــ بعيدة والله عنكم !

فقال الوراق :

ـــ ما عنيت هذا ؟

قال أبو نواس :

ــ بغارة الكرخ التى قلت فيها « يا ناظرا فى الدين ما الأمر » .
فقال الوراق :

ــ بل بزيارتنا لمنزل عنان جارية الناطفى ، ولم يكن معنا أبو عثمان وكان فضل الرقاشي وابن الخياط ، هنالك تناشدك الى وقت الظهر ، فلما كان موعد الانصراف سأل بعضنا « أين نحن العشية » فكل قال « عندى » واحتكمنا بالشعر الى عنان .

قال داود :

ــ أنا قلت « قوموا الى قصف لهو » ..

قال أبو نواس :

ــ لا حاجة بنا الى هذا ، ولنقل فى اجتماعنا اليوم شيئا جديدا ، ولنتراض بحكم الجاحظ فيكم .

١٥ ـ مشروع

ولقد نهبا الطريق الى دار محمد بن سليمان بن على ، ولدى الباب لقيهما عبد أسلمهما الى قهرمان عدل بهما الى ردهة مفروشة الصحن ، ملبسة الحيطان بالوشى الدقيق . ولم يمض الا القليل حتى طالعهما سيد الدار مهللا ، وأنشأ يقول فى مزح يشبه الجد :

ــ قد طالما طلبتك يا أبا عثمان فلم تأت الا بدعوة ابن الربيع ، أخذك منا الكلام ، وزندقة الحمراء .

وأشار الى الرسول فانصرف ، بينما قال عمرو ، وقد داخله القلق :

ـــ حاشا يا مولاى ولكن ..

قال الأمير :

ـــ فأنت اذن كاره ؟

قال الجاحظ :

ـــ بل أعمل بما قال رسول الله : زر غبا .

وفى هذه اللحظة دخل الفضل بن الربيع فحيا ، ونودى على « الغلام » فدخل مولى أسود عليه ثياب موشية وعمامة صفراء فقال الأمير :

ـــ ادع بالمائدة .

فمد سماط وضع عليه الخبز ، وجدى مشوى وبقول ، ولم يزل الخدم يضعون ويرفعون ، وعمرو يتمتم دهشة وهو يأكل :

ـــ يا للحداثة وما تصنع بأهلها !

وقال الفضل :

ـــ جمعتنا يا أبا عثمان أكلة عربية وبعدها ..

وسكت ريثما يضع الخدم الحلوى والنبيذ والنقل والريحان ، وما انتهوا حتى دخل شاب عليه طيلسان أصفر وسراويل وشى مسدول ، وفى يده عود خيزران ملون . فقبل أيدى الجماعة ، واتخذ جلسته على مبعدة وهو يمد أصابعه يلمس بها الأوتار . ولم تكد الأنغام تتدافع كسلى ناعمة حتى دخلت جارية راحت تتخطر ، وقد انفلتت من تحت قلنسوتها خصلات من شعرها الى

قبائها المذهب ، وتحيط خصرها منطقة بزنار أخضر غرقت فى لحمها ، فما تكاد تبين الا معاليقها ، وفى قدميها نعل مدبجة الدروز .

ها أنت ذا يا أبا عثمان ترى جاريتك .. أم ولدك ، بل ربما كانت جاريتى أكثر جمالا ، لكن أين هى ؟ وماذا فعل الله بها ؟ لابد أن تكون وضعت ، وانني لأنتظر البريد كل يوم بشيء ولا يأتى ، أفتكون ماتت أو مات ولدى ؟

ــ ألا قلت شيئا يا أبا عثمان .

قال عمرو وقد اضطرب وان كانت الأريحية تهزه :

ــ والله انها لمعان لا يحسن كشفها الا شعراء البلد ، وأين أنا من ابن هانيء والخليع والرقاشى وابن مناذر ونحوهم ؟

قال الفضل بمرارة :

ــ هم بين أيدى آل برمك ، فكيف لا تنزلون الميدان ؟

وأشار ابن سليمان الى الراقصة والعازف فانصرفا ، وأغلق عليهما الباب ، فقال عمرو :

ــ لا نملك الأداة .

قال الفضل :

ــ ويسلب حق أمير المؤمنين ؟

قال عمرو :

ــ ان كان علىّ أن أفعل شيئا فعلته ، فماذا ترى ؟

قال الفضل :

ـــ اجمع قلوب العرب حولنا ما دام يحيى وأولاده استأثروا بالحمراء ، وبمن هواه مع الحمراء ، أتدرى ما كان ؟

فهز عمرو رأسه ، فاستطرد الفضل يقول :

ـــ على بن حمزة الكسائى يؤدب محمد الأمين ، واليزيدى يؤدب أخاه عبد الله ، وسهل بن هارون يلوذ بجعفر البرمكى ، وسلم الخاسر يقصد الفضل أخاه الكبير ، والشيبانى القاضى صاحب أبى حنيفة يدعو للبرامكة ، ومثله أبو عبد الرحمن الهاشمى أمير الثغور .. كل الرجال يجتمعون مع خصومنا يا أبا عثمان ، ونقعد نحن للفرجة ، والله لن تقوم لنا قائمة حتى يكون عندنا مثل ما عندهم . وها نحن أولاء نبدأ بالأصمعى ويونس بن حبيب ، وحدثنى عنك عبد الرحمن بن عبد الملك ابن صالح الهاشمى .

وعلى هذا النحو استمر الفضل يتكلم ، حتى اذا قال له « ابدأ بالمسجديين ثم اكتب اذا أردت الكتابة ، وستمد بالمال ما طلبته » . انفرجت أساريره ، فهل يا ترى جاءه الفرج وانتهت بذلك ـــ ولو مؤقتا ـــ مشكلة طالما أعيته الحيل فى حلها ؟

١٦ ـ الكتاب الأول

مضى كل شىء بعد ذلك على ما قدّر .. بسرعة ، وباحكام ، وبصورة جعلته يبدو مغامرا محظوظا ، وان يكن نكب بالابن الذى جاء وجاءت به أمه الى البصرة !

واذا نحن تابعناه وصدقناه فيما يقوله عن نفسه ، كان علينا أن نعترف له بأنه لم يصبح مغامرا عن حاجة الى المال فحسب ، بل كذلك عن طبيعة مزاجه وتكوينه .. ذلك المزاج الذى بذرت فيه موهبة الفنان أروع البـذور ، فكان الثمر متنوعا مختلف الألوان .

وهو معنى على الدوام ـــ ربما لهذا السبب ـــ بايجاد تبرير فلسفى لاتجاهه فى الحياة ، ما دام لا يؤذى أحدا ولا يفتات على الحقيقة « الكلية » فليكن ما يكون . وقد عرضت عليه مرات فرص الالتحاق بأى بلاط ، ولكن ما من اغراء استطاع أن يستدرجه الى دفء الوظيفة وأمن الاستقرار .

ولا بأس بعد ذلك من أن يؤلف الكتب ويعتق ورقها ثم يبيعها منســوبة الى الأقدمين . وطلب اليه مــرة أن يتكلم عن منطق أرسطو ، فزعم أن لديه كتابا له خصه به أحد سكان الأبلة . وسئل عن النبر فى اللاتينية والفارسية فقال فيه مالم يستطع أحد أن يصدقه فيه أو يكذبه . وعرضت أمامه مشكلة موسيقية فأفتى فيها ، وبيّن أصولها عند العرب وغير العرب على حد سواء .

وكانوا يسألونه عن اللصوص والشطار فيجيب ، وعن النساء والمعلمين فلا يتوقف ، وعن العقائد والملل فيفلسف ويشعّب القول ويفرّع ، وعن السياسة والدين فلا يتردد ، وعن الرقص والمبارزة ومهارشة الديوك وركوب الخيل ولعب الشطرنج وطسم وجديس وعاد وثمود فيعيد ويزيد ولا يكل أو يمل .

وفى كل مرة كان يكسف بحسن طالعه وذكائه ولباقته نور غيره ، بل ربما كان يظهر على أمثال أبى عبيدة من الشعوبيين بصورة تضعه فى الجوزاء . وباختصار ظهر فى السنوات الأربع التى أصبح فيها « أبا عثمان » أن فى استطاعته أن يكون أستاذا فى أى علم بسهولة مطلقة ، لما أوتيه من توقد فى الذهن وسرعة فى التمثل . وقد روّع النظام فى جلساته التى كانت تعقد فى دار أبى عمران .

وبدا فى تلك الأثنـاء سعيدا . فالمـال بين يديه ، وبيوت آل سليمان وآل جعفر مفتوحة أمامه ، والكوفة تدعوه ، ويونس ابن حبيب يعلن ليلة وفاته أنه وحيد عصره ، والحمراء تحسب له ألف حساب . الا أن شيئا واحدا شوه دنياه المقبلة عليه ، وهو ولده الذى تمنى أن يكون فى جمال أمه وكمال عقله .. لقد كان بقبحه هو وبجهلها ! ولما مات شيعه بدمعتين ، ولم يشفق على أمه التى أعادها الى الثغور بألف لعنة .

لقد علمته التجربة أن « الزوجة » عبء . وان تكن « المرأة » مرغوبا فيها أبدا .

واذا كانت المرأة تصد عنه لشوهته ، فليس ما يمنع من أن تقبل عليه ما دام يملك الدرهم والدينار . وكل المعلومات الأساسية فى أى ميدان من ميادين « الأسرة » تقفه على هذه الحقيقة ، فلماذا العبء الذى يحمله على كاهله مدى حياته ؟

ومن ذلك ما حدث فى بغداد قبل نكبة البرامكة ، اذ قال له أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبى دؤاد البصرى ـــ الذى قابله

لأول مرة فى أنطاكية وزاره فى البصرة مرات — يقول رسول الله « مسكين مسكين رجل لا زوجة له ، مسكينة مسكينة امرأة لا بعل لها » فلم يتردد فى أن يؤكد لأبى الوليد أن الزوجة اذا صاحبت زوجها شيبت رأسه وسهكت ريحه وسودت لونه وكثرت بوله ، فضلا عن أن الزوجات — عادة — مصايد ابليس وحبائل الشيطان ، يتعبن الغنى ، ويكلفن الفقير ما لا يجد . وهذا كله لا يلزم أحدا بالزواج ، وان يكن الحديث الشريف لا يحمل معنى الأمر ، ورب ضارة نافعة على أى حال !

ومرة ثانية قيل له « بم تملأ أيامك اذا مللت القراءة ؟ » قال :

— بالكتابة .. وقد رأيت أن أجمع من نوادر النساء والمعلمين ما يروع ويعجب .

وشوهد بعد ذلك متأبطا كتابا ذكر أنه فيمن سمى « عمرا » مثله من الأدباء ، ولم يعثر بين من حمل هذا الاسم على معلم واحد ، وهذا من حسن الطالع من غير شك !

١٧ — هذا القبيح الوسيم

اصطحب عمرو صديقه قطربا — وكان من رجال النحو — بعد أن ودّعا الأخفش أستاذهما على موعد فى المسجد غدا ، وقصدا به الى دار أبى عمران لملاقاة النظام . لقد شغف قطرب بمجالس هذا المتكلم ، ولعل هذا ما قرّبه الى الجاحظ ، لأن هذا لم يكن يمل الجلوس اليه . وعلى أنهما عند وصولهما علما أن النظام اضطر الى السفر الى بغداد بناء على دعوة من الرشيد توسط له

فيها ثمامة بن أشرس ، وقيل : ان جعفر بن يحيى البرمكى أراد في الوقت نفسه أن يختبره فى مسائل عرضت له فى أحد كتب أرسطاليس .

ولقد وجد عمرو نفسه بعد سفر صديقه — الذى بدأ يحتل في نفسه مكان الأستاذ — يتولى عنه شرح آرائه ، وان يكن في بعض الأحيان يحاول التعليق عليها . وعندما نبهه الى خطأ هذا الأخفش — وكان مجادلا يحسن الخوض فى مسائل الكلام — ذكر له أن صديقه فى الواقع أكثر أهل الأرض تنقلا ، وأسرعهم اعتقادا ، وأقلهم على ما اجتبى ثباتا .

يجب أن تعلم ويعلم غيرك أنى لا أنتقصه ، ولكننى أقرر واقعا . انه فرضى عروضى — وأنا أكره العروض — وحاسب ومنجم ونسابي وحافظ للقرآن الكريم ، ويعرف تفسيره ويعالج الكيمياء ويروى كلام الأوائل ويقول الشعر اذا أراده ويستطيع مناقشتك في النحو . بيد أنه يسأم طول الروية فتجىء كلماته لا كما جاءت كلمات واصل فى « الأصول الخمسة » محكمة واضحة . فما معنى قوله : ان القرآن حق وليس تأليفه بحجة ، وانه تنزيل وليس ببرهان [١٧] . وما معنى أن الارادة لا تضاف الى الله على الحقيقة ، واذا وصف بها شرعا فى أفعاله فالمعنى أنه خالقها ومنشئها على حسب ما علم [١٨] وهل يقبل العامة أن يقول لهم « لا جزء الا وله جزء ، ولا بعض الا وله بعض ، ولا نصف الا وله نصف » ليقولوا : أبدعت والله وأحسنت ؟

ان كتبه فى حاجة الى بيان واستدراك ، كالكتب التى تكتبها أنت أيها الأجلع الذى لا تنطبق شفتاك أبدا ، والفارق بينكما أنه يقول : ان كتبه لله ، دعنى أسألك فسنقول هذا تماما .

— أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ؟ وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟

قال :

— أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله ، وليست هى من كتب الدين . ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعوننى اليه قلّت حاجة الناس اليّ فيها ، وانما قد كسبت فى هذا التدبير ، اذ كنت الى التكسب ذهبت . ولكن ما بال النظام وأصحابه يكتبون الكتب لله بزعمهم ، ثم يأخذ مثلى فى موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ، ولا يفهم أكثرها !

ومر فى هذه الأثناء الجماز ، فأعجبه المنظر .. الأستاذ والتلميذ قبيح وأقبح منه ، وكلاهما محب للآخر لدمامته . ولعلهما يشفقان بعضهما على بعض ، ولكن الجماز يسخر قائلا :

— وافق شنٌ طبقة .

فيقول الجاحظ :

— كأنك استوعبت علوم عصرك ، فرحت تروى الأمثال ، ألا هل اكتفيت فقعدت الى قحف الخنزير تأكل فيه قيء الكلاب[١٩] .

فعدل عنه وهو يقول :

ـــ والله لأرمينك أيها الأسود بأبى هفان .

وهل يظن هذا البخيل المتطفل الشويعر ، هاتك عرض أمه أنى ألين له ولغيره ، والمرء بعلمه وعقله وليس بحسنه وبياض لونه ؟ ألم يكن عبد الله بن عباس أدلم ، وكان آل أبى طالب سودا وأدما وقال رسول الله « بعثت الى الأحمر والأسود » وقد علم أننا نحن العرب لسنا حمرا ولا بيضا فقد عنانا بقوله الأسود ؟

وليأت بأبى هفان . فليس فى وسعه أن يكون أثقل علىّ من غيره من الثقلاء ، ولكنى عنه منصرف الى ما أخذت به نفسى من شرح ابراهيم ، الا اذا وقعت الواقعة فتكون نهايتى ونهايته ، والخير فيما يفعله الله .

١٨ ـ عن الشعر

لو يمسخ الخنزير مسخا ثانيا ما كان الا دون قبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بوجهه وهو القذى فى عين كل ملاحظ

وقيل له ان الناظم هو أحمد بن سلامة الكتبى ، فمر عليه بدكانه وصاح « لافضّ فوك » وأسرع على حماره الى أبى هفان قاصدا اللهو معه وسؤاله عما أشيع من حبس الرشيد لأبى نواس فى المطبق ، فقابله على الباب غلام عجمى فقال له :

ـــ من أنت ؟

أجاب :

ــ الجاحظ !

فدخل الغلام الى أبى هفان ، وهو يصيح قائلا :

ــ الجاحد على الباب .

وسمعه فضحك ، ولما عاد اليه بعد قليل ، ليعيد سؤاله عن اسمه قال له :

ــ قل له الحدقى !

فدخل الغلام وهو يصيح « الحلقى » فاندفع خلفه قائلا :

ــ ردّنا الى الأول أيها الغلام !

وكان فى المنزل جماعة من أهل العلم والنادرة فيهم أبو البصير الشاعر ، وأبو العيناء الراوية الأعمى ، فراحوا يخوضون فى ضروب من الحديث جعلتهم يتعرضون لشيوخهم ، ثم تطرق الحديث الى السياسة . وكعادة الجاحظ فى حملته على الشعوبية والتنديد بما تفعله هذه الأيام ، قال :

ــ على فضل بعض بنى الحمراء ففيهم من صبأ وأساء ، وبالأمس قرأت صفحات من الامامة فرأيت جدلا عقيما ، تماما مثل ما رأيت من أبى عبيدة ، وهو ينقد شعر العرب وحياتهم .

قال أحد الجالسين :

ــ ان شئت فدع الامامة الى غيرها .

قال أبو البصير :

ــ فليكن الشعر .

قال أبو هفان :

ـــ فهل أنشدكم من شعر بشار وابن هانىء ؟

قال أبو العيناء :

ـــ بل ليقل الجاحظ ماذا يعيب نقد أبى عبيدة وهو شيخ البصرة وراويها وعالمها ، ولو مكنوه لقرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ؟

قال الجاحظ :

ـــ ما دام أبو عبيدة لا ينقل من الشعر الا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام فلا خير فيه ، والدليل أنه قدّم قصيدة ما فى وصف المطر على قصيدة أوس بن حجر المشهورة . هل أقرأها ؟ اننى والله أتعجب من هذا الحكم .

وخرج من فوره ، وانه على ظهر حماره يخب اذا المنادى يعلن وحوله الصبية والنساء والرجال المتسكعون :

ـــ يا أهل الحلة ، يا أهل الحلة ، قضى أمير المؤمنين على آل برمك ، وصادر دورهم !

١٩ ـ على مدار الأيام

ملأت الشائعات البصرة بعد ذلك عن سبب النكبة ، فمن قائل : ان السندى بن شاهك صاحب الشرطة الذى تولى عملية الايقاع بالبرامكة أطلع الرشيد على كتاب بخاتم جعفر بن يحيى الى أخيه موسى يسأله فيه التوجه الى الحجاز لاصطحاب يحيى العلوى

الى خراسان والدعوة له فيها ، وقائل يزعم أن الفضل بن الربيع دس الأصمعى عند أمير المؤمنين حتى غيّره على البرامكة ببيانه الناصع وسحر حديثه ، وقائل : يؤكد أن الفضل هذا أوغر صدر الرشيد على كثير من بنى هاشم — وعلى رأسهم أبو عبد الرحمن عبد الملك بن صالح أمير الثغور — فقبض عليهم ، وقائل : ان أمير المؤمنين طلب من يحيى البرمكى ألف ألف درهم من ستة آلاف ألف وردت من فارس فاعتذر كما اعتذر ابنه جعفر عن عدم مده بعشرة آلاف ، وقائل : بل السبب هو حب نشأ بين العباسة أخت الرشيد وجعفر ، وهكذا ..

وان هى الا أسابيع قلائل حتى وردت الأخبار الحقيقية ، لكن الناس أبوا الا أن يخوضوا فى الأمر على النحو الذى يحبون ، الا أن شيئا واحدا نزل على أبى عثمان الجاحظ نزول الصاعقة ، اذ صح ما روى : أن الرشيد قبض على أبى عبد الرحمن الهاشمى أمير الثغور ، وأودعه سجن الفضل بن الربيع وزيره .

وروى العائدون من بغداد أن ابن الهاشمى وكاتبه قمامة فرّا الى أمير المؤمنين ، ووشيا بالرجل مدعيين أنه سعى للخلافة تطبيقا لمخطط برمكى ينفذ بعد فشل مشروع تولية يحيى العلوى ، وقد جاء الرشيد بأبى عبد الرحمن فحبسه .

وبكى عمرو ، فقد كان الهاشمى شهما ، ولا يمكن أن يكون قد دبر أمرا ضد أمير المؤمنين ، على رغم ما كان بينه وبين الفضل البرمكى . غير أن الشىء الذى لا أصدقه هو وشاية عبد الرحمن

بأبيه ، الا أن يكون هناك شيء ما ، فما هو ؟ ألا ما أشق ما تدل عليه الآية الكريمة « ان من أزواجكم وأولادكم عــدوا لكم فاحذروهم » أالى هذا الحد يصل أمر هذه الأمة ؟ وماذا أفعل ، وفيم بقائى بين قوم لا يجمع بينهم ســوى البغض والكراهية والحقد ؟!

وفى هذه الأثناء وصلته دعوة من ثمامة بن أشرس ، فخاف . وجاءته رسالة أخرى من صديقه ابراهيم النظام ، فاشتد خوفه . ان البصرة ظلت له حتى اليوم حصن أمان وخير موئل ، ولما رأى أبا عبيدة يشد رحاله الى قصر الخلد ـــ محاطا بتوصيات اسحاق الموصلى ـــ رجا أن لا يعود .

كان ذلك عام ثمان وثمانين ومائة على وجه التحديد ، أى فى السنة التى تلت النكبة ، وقدم بدلا منه الأصمعى يحكى ويحكى . فاذا دار السلام دار عذاب ، واذا الأخ فيها عين على أخيه والابن يسعى بأهله ، وكل يقول : « رضينا بالله حكما وبأمير المؤمنين حاكما » .

وعقد الأصمعى حلقته فى المسجد . فتحلق حوله كثيرون منهم الزياشى والتوزى وأبو عبيــد القاسم وابن شــبَّة والجمحى والترمذى ، ووجد الجاحظ نفسه يقصده ويسمع اليه . انه عذب الحــديث حقيقة ، ولابد أن يكون قد لعب لعبة ما ـــ عنــد الرشيد ـــ فى القضاء على البرامكة الذين كان يكرههم تعصبا للعرب . هل أسأله ؟ ولكنه متجهم مقطب دائما ، ويغيظنى منــه

هزاله وركوبه ذلك الحمار الأعجف الذى لا يليق برجل صاحب أمير المؤمنين سنوات عدة فوسع عليه وأغناه .

ويمر عام وعام ، فاذا ما كان يعيبه على الأصمعى يقع هو فيه . وتثور فى وجهه من جديد مشكلة المال فيحاول الكتابة ، ولكن كتبه لا تنفق ، فى حين تجد كتب النظام صديقه رواجا أى رواج . فيعود من جديد الى ما أخذ به نفسه قبل من تأليف بعض الكتب ونحلها للأولين . على أنه وهو يخطط للرد على الشعوبية لم يجد مفرا من اعلان اغتباطه بوفاة يحيى البرمكى عام ١٩٠ ، ثم ود لو سافر الى الرقة ــ مع الأصمعى ــ ليصل حبله بحبل الخليفة . وقد أبت الظروف الا أن تجعله رهين بلده ، يرصد للشعوبية التى عادت فشمّرت عن ساعد الجد باتساع نفوذ أسرة بنى سهل المجوسية .

ثم يموت الفضل بن يحيى ، ويعقبه الرشيد ، ويتولى الأمين الخلافة . فاذا كل شيء يبدو كما لو كانت شمس العرب فى السمت ، ويروح الجاحظ يغزو بآرائه جميع منتديات البصرة والكوفة دون أن يهتم كثيرا بسلطان بنى سهل الذى كان يتسع شيئا فشيئا فى بغداد . وطبق مبدأ « عش كما تريد » على نحو أطلقه من كل الحدود .

فهو عربى أولا ، ولا عليه بعد ذلك أن يتسرى من الجوارى والفتيات ــ ما وجد المال ــ بما تطرب به نفسه . ولا بأس اذا رأس عصابات المجان ما كان ذلك على مبعدة من أعين الرقباء ،

ولا يرده شيء عن ارتياد المواخير ما دامت لا تؤلب عليه أحدا من المعتزلة الذين أصبح علما بينهم .

والغريب أنه وجد من أهل بلده من راح يدافع عنه هجوم خصومه الذين كانوا من قوة اللسن ، واضطغان الحفيظة بحيث هزوه أكثر من مرة ، وصرح محبوه بأنه كان يأخذ من اللهـو أسمحه ، ومن النعيم أبعده عن الاثم .

على أنه ــ وهذا أغرب ــ كان يرى أن ارضـاء العامة ومصانعة بغضهم مصانعته للكثير من الأشراف والأغنياء يحفظه من كل ما يعصف به . وتطبيقا لهذا المبدأ الثانى ، وهو « أرض العامة تأمن شرهم » وقد اقتضاه التوسع فى مخالطة الأفاقين والمغامرين والشطار نجح فى توطيد مركزه ، وأفاد من ناحية أخرى تعلم لهجاتهم ــ وكانت به خاصة اتقان اللغات بأقصر زمن ــ وتشرّب عاداتهم مدعيا أنهم الأصدقاء الحميمون .

ولم ينكر عمرو فى يوم من الأيام أن حياته تلك بعيدة من الأكدار ، بل انه على العكس جاهر بها فيما بعد عندما كتب كتبه الضخمة . ولم يشأ أن يخدع أحدا بمثل قوله « اللهم انا نعوذ بك من فتنة القول ، كما نعوذ بك من فتنة العمل » لأنه كان يتبع ذلك بكثير من الاعترافات التى تجعل استعاذته من فتنة القول والعمل مجرد شعار لا طائل وراءه .

واذا كان قد اعتـاد بعـد ذلك أن يسـتعيذ من التكلف لما لا يحسن ، فلأن هذا يشكل فى الحقيقة مبدأه الثالث ، وهو

« الصراحة أولا » . وفى حدود تلك الصراحة يمكن أن يقول أى شيء عن أى شيء ، غير أنه يجعل ازاءه تحفظا واحدا هو ألا يظنه أحد شاطرا من الشطار أو نصابا أو مخادعا أو أحد أقطاب الجهجاه الذين كانوا يذهبون الى نصرة الكذب والدفاع عنه !

وعلى ذلك فليقل آراءه الخطيرة فى الشعوبية والامامة ، كما يقول آراءه فى جميع أصناف الناس والأدباء والعلماء دون خشية وبلا اعتبار لما يثيره كلامه من ضغينة أو حسد .

فالشعوبية تطعن على العرب المخصرة فى خطبها وكذلك القنا والقضيب والاتكاء على القوس ، لماذا ؟ وهل يعيب العرب أن كانوا رعاة ابل وغنم ، وكانت رماحهم من مرّان ، وأسنتهم من قرون ؟ وهل نسى الشعوبية أنهم أهل كفر وعبيد نار ، وخضعوا للعرب ، ولبسوا الخفاف ، ولم يكونوا أهل بديهة ؟

والامامة لا تصلح الا بالنص والتعيين ظاهرا مكشوفا ، وقد يكون أهلا لها — كما يقول سائر المعتزلة — كل من كان قائما بالكتاب والسنة . لكن لا يستحقها الا الأفضل ، ولا يجوز صرفها الى المفضول .

والمعلمون والنساء خير رأى فيهم قول بعض الحكماء : لا تستشيروا معلما ولا راعى غنم ولا كثير القعود مع النساء ، كما لا تدع أم صبيك تضربه لأنه أعقل منها وان كانت أسن منه !

والأصمعى الذى رماه بالقدرية ، وجعل يقول له وهو يمسك

نعله المخصوفة بالحديد : « نعم قناع القدَرى » بخيل ويأخذ بالمنَّانية .

والنظام ـــ صديقه وأستاذه معا ـــ واش لا يحفظ السر ، مع أنه قال فيه :

حبى لعمـــرو جوهر ثابت وحبــه لى عرض زائل
به جهــاتى الست مشغولة وهو الى غيرى بها مائل

وأما أبو عمران الذى فتح له بيته وأعطاه من ماله فهو بخيل ، وان يكن هو والكذب لا يأخذان فى طريق ، ولم يكن عليه فى الصدق مئونة لايثاره له ، حتى كان يستوى عنده ما يضر وما ينفع.

الى غير ذلك من الأقوال التى تجاوز الأعلام الى المعالم ، وتصل التجربة بالأخلاق حتى ليصبح البكاء عنده صالحا للطبائع اذا وافق الموضع ولم يجاوز المقدار ، وخير كلام الاماء ما كان لحنا ، وكل عزيز تحت القدرة ذليل .

٢٠ ـ الى المأمون

كان فى البصرة علويون ، ورغم أنهم لم يكونوا من الكثرة بحيث يشكلون خطرا كبيرا على الوضع العام للبلد ـــ الذى توزعه سلطان السنة والاعتزال ـــ فقد ألحوا على قضية الامامة الحاحا كاد يودى بالدولة منتهزين فرصة الصراع الذى نشب بين الأمين وأخيه المأمون .

وراح الجاحظ ـــ الذى ظهر من سلوكه أنه يعد نفسه لأن يكون كاتب رسائل يضمنها آراءه لمعارفه وأصحابه تاركا الرواية

لأصحابها من أمثال الأصمعي وأبي عبيدة ــ يشارك فى القضية مشاركة ايجابية . وكان حريصا دائما على نفض الغبار عن ثيابه كلما اضطر الى الطعن فى على بن أبى طالب ، مع اعلان احترامه له أحيانا وتخطئة من حاربه . واضطر فى كثير من الأحيان الى أن يقول « الشيعة رجلان زيدى ورافضى » وكان يغلب على علوية البصرة الزيدية ، وهم أتباع زيد بن على الذى قتل سنة ١٢٢ ، فى حين غلب الشيعة الرافضة على الكوفة وسموا بالامامية ، وأخذ يردد آراء الأولين ــ كأنها له ــ مدعيا أنه انما يريد أن يعرض من الشيعة فى أحسن لبوسهم ، ويذكرهم بخير صفاتهم .

وصادف هذا هوى فى نفس المأمون ، وكان ميزان القوة قد أخذ يرجح به ، كما لم يثر المعتزلة لأن الزيدية كانوا أقرب الفرق الاسلامية الى الاعتزال . فلما انكسر الأمين ، وعقد المأمون للفضل ابن سهل من جبل همدان الى التبت ومن بحر فارس الى بحر الديلم ، وولى أخاه الحسن بن سهل ديوان خراجه [٢١] ، وتلقى بغبطة انتصار قائده طاهر بن الحسين فى الأهواز وواسط والمدائن وصرصر ، كان على الجاحظ أن يجاهر بآرائه تلك وبخاصة أنه أرضى المعتزلة ارضاء كاملا ، وهل لم يكن زيد فى الأصل الا تلميذا لواصل بن عطاء أول المعتزلين ؟

غير أن هذا أوقع الجاحظ برغم كياسته ولباقته فى حــرج التوسط ، فيما درج عليه الحمراء من حب للعلوية ، وآلمه أن يتغنى العامة ــ الذين يؤثرهم ــ بقول الفضل بن سهل عندما كان المأمون فى خراسان :

ـــ أنت نازل فى أخوالك ، وبيعتك فى أعناقهم .

فأخواله هم الفرس ، وكان الخراسانيون يشيرون اليه بابن الأخت ، فى الوقت الذى كان الموتورون فيه يصيحون :

ـــ فليقض على بني هاشم ، فهم سند الأمين !

وأشاعوا أن عبد الملك بن صالح لم يقتله الفضل بن الربيع ، وانما قتله جند المأمون . وبعد حصار طويل فتح الطريق ، وأخذت فلول المحمدية أتباع الأمين تذوب فى السواد . وأقبل على البصرة مئات فيهم الحسين بن الضحاك الخليع يعلن أن أبا نواس قضى وأن العلوية يطلون برأسهم فى عناد ، فثار من ثار فى البصرة . وجاهر بعضهم بغضبه على المأمون ، واشتبك بعض آخر فى نقاش كان واحد كالأصمعى ينهيه بقوله :

ـــ والله لن أترك ما أنا فيه من حبى لأرومتى ، أما الحمراء فلن تظفر منى الا بمثل ما أظفرتها به من قبل حتى وان تكن اليوم أخوالا للامام ، وأما العلوية فهم فى مخاصمتى حتى يكفوا .

وعبثا حاول الجاحظ أن يخفف من غلوائه ، وما أشرف عام ١٩٩ على نهايته حتى كانت الكوفة تشق عصا الطاعة بقيادة ابن طباطبا ، وقتله أبو السرايا ليقيم مكانه ولدا من آل على ، ثم يزحف باسمه على البصرة ويوقع بأهل واسط . ولقد حرص أبو السرايا على أن يستميل الى جانبه البصريين ، فلما أسقط فى يده نكل بهم ، فتوارى أمثال الأصمعى لئلا يلحق بهم أذى علوى أو مأمونى ، فى حين نشط الجاحظ . حتى تصحو البصرة ذات

يوم من سنة مائتين على نبأ يقول : ان أبا السرايا ترك الكوفة هاربا ، فكان لابد أن تعلن البصرة ولاءها لهرثمة بن أعين قائد المأمون . وكان ما أثار دهشة الجاحظ أن يأمر المأمون هرثمة بالقضاء على كل ما للعلويين من نشاط ، وفى ذات الوقت يبايع لعلي الرضا بولاية العهد سنة ٢٠١ .

ولم يجد الجاحظ ما يفعله فى تلك الحقبة الصاخبة المليئة بالتناقض ، الا أن يعود الى أوراقه ينسق الشتيت منها ، عاقدا عزمه على نشر سلسلة من الكتب يتعيش بثمنها . فأصدر « كتاب النساء » و « كتاب اللصوص » سلك فيهما مسلك الرواية ، ولم يلقيا رواجا كبيرا . وفى هذا الوقت وصلته للمرة الثانية دعوة من ثمامة بن أشرس والنظام ليزور بغداد ويتصل بأولى الأمر فيها ، فتردد .

ولكن الدعوة دفعته الى أن يخرج بكتاب « الاعتزال » وأتبعه بكتاب « وجوب الامامة » متجاوبا مع أحداث العصر والبلد ، ومحاولا أن يفصل فى مقالات تلك المشكلة التى تشعبت بين التقديس المتطرف لها وبين انكار القول بوجوبها ثم بيّن القول بضرورة توحيدها والقول بجواز تعديدها . وحينذاك يصدر المأمون أمره الى العلماء بالاسهام العملى فيها ، ويرسل للجاحظ من بغداد أحد أساتذته القدامى ــ هو أبو محمد اليزيدى المتوفى سنة ٢٠٢ ــ أن يكتب فى أمر الامامة ويبعث بكتابه أو كتبه الى مرو حيث يقيم المأمون .

وهنا يجد أبو عثمان الجاحظ الفرصة مهيأة أمامه ليصل الى ما تمنى أن يصل اليه . وفى ذات الوقت يستطيع أن يعلق رأيه فى مشكلة العرب والفرس ما دامت النزعة الفارسية شيعية بطبيعتها ، وما دام فى قدرته أن يكشف عن أبعاد هـذه النزعة وقيمتها . ولم يفته بطبيعة الحال أن يبدو عادلا ، فيتنكب طريق الأصمعى التى تصخب بالصراخ ضد الحمراء ويختار طريق المصانعة ناشرا كتابه « فضل الفرس » دون أن يقبل فيه تهنئة أحد ، ورفض أن يتحدث أبو عبيدة بتوفيقه فيه ، وقد أتبعه بكتاب « التسوية بين العرب والعجم » .

ولقد طرح أمر الامامة فى أكثر من كتاب استعان عليها بوراق اسمه أبو يحيى زكريا بن يحيى أسعفه بسرعة يده وجودة خطه ، فأعد « الدلالة على أن الامامة فرض » مستبدلا اياه بكتابه الأول « وجوب الامامة » كما أعد « كتاب الامامة على مذهب الشيعة » و « كتاب الرافضة » و « كتاب حكاية قول أصناف الزيدية » .

وطيرت الكتب الى المأمون ، ولم يكن الا قليل حتى عرف أنها جاءت على ما أمر به بعد أن استشار فيها اليزيدى وقرأها . وهنا أرسل له فشد اليه الرحال مصطحبا وراقه ، فلما مثل بين يديه قال له :

ـــ قد كان بعض من نرتضى عقله ونصدق خبره خبَّرنا عن هذه الكتب باحكام الصنعة وكثرة الفائدة ، فقلت له قد تربى الصفة على

العيان ، فلما رأيتها رأيت العيان قد أربى على الصفة ، فلما فليتها أربى الفلى على العيان كما أربى العيان على الصفة .

وسكت قليلا ، ثم أشار الى كتاب الامامة على مذهب الشيعة وقال :

ـــ وهذا كتاب لا يحتاج الى حضور صاحبه ، ولا يفتقر الى المحتجين عنه ، قد جمع استقصاء المعانى واستيفاء جميع الحقوق ، مع اللفظ الجزل والمخرج السهل .

الباب الثانى
شـيخ الكتـاب

١ ـ ديوان الرسائل

صحت نية الجاحظ عقب هروبه من بغداد سنة اثنتين ومائتين على اللحاق بالمأمون فى مرو ، بعد أن خلعه عمه ابراهيم بن المهدى وبايع لنفسه وتلقب بالمبارك . وكان من الصعب عـلى وزيره الفضل بن سهل أن يعمل له شيئا على الاطلاق ، وعجز تماما عن أن يجمع له الجموع أو حتى يستميل أقطاب المعتزلة ـــ من أمثال ثمامة بن أشرس وأحمد بن أبى دؤاد ـــ وطائفة الكتاب التى بدأ يتزعمها محمد بن عبد الملك الزيات مزاحما ابراهيم بن العباس الصـــولى .

كانت هناك أنباء بعزم المأمون على المقاومة ، وقيل انه استخلف على خراسان غسان بن عباد ، لكن لما وصل الى سرخس ،وصاحب وصوله مقتل الفضل وهو يستحم ، رأى من العبث أن يشارك بأى عمل يقربه من الرجل الذى عقد عليه آماله فى هذه المرحلة من حياته .

وبينما كان ينزل ضيفا على ابن أبى دؤاد قاضى القضاة ـــ وقد عرفه به ابنه أبو الوليد محمد ـــ فى ضيعته بالمدائن نمى اليه وصول ابراهيم بن المهدى اليها ، فاضطرب وجزع . الا أن الغد

لم يلبث أن أسفر عن عجيب ، ذلك أن ابراهيم تركها فجأة الى العاصمة ، بعد أن جاءته الأنباء بوصول المأمون اليها وخلعه هو عن عرشها . وهنا لم يجد الجاحظ بدا من أن يعاود طرق أبواب القصر من جديد ، لكن سماعه بقيام الفتن فيها قتل فى أعماقه تلك الرغبة فرجع الى البصرة يجرر أذيال الخيبة ويجتر الغصص .

وفى بلده جاءته الأنباء ، ولكن ما الجدوى فيها ؟ وانكب على الكتابة ، ولو نظرنا الى هذه الرسائل المنوعة التى قام بتأليفها على البديهة ، وفى أوقات قصيرة ، لوجدناها كافية لأن تجعل منه رجلا علميا . لكنه كان بعزيمته وحبه للحياة يتمسك بالبقاء ، لا حيث هو وانما حيث يطمع أن يكون . ومن ثم كان حرصه على الاتصال بثمامة والنظام وأحمد بن أبى دؤاد . ومع ذلك كان لا ينى يتساءل : لماذا الحرص على أن يربط نفسه بأثقال حياة معينة ؟ أليس فى أن يعيش مائة حياة متنوعة خير كل الخير ؟

انني لا أريد المال فى واقع الأمر ، ولكنى أريد مسرات هذه الدنيا مهما تكن الوسيلة اليها . ان الشىء الذى اخال أنى أملكه هو الذى يملكنى فى الحقيقة بحكم تعلقى به ، والموضع الذى أظن أنى قادر على أن أتحرك فيه هو سجنى الذى أعد لكى أموت فيه .

ليس فى الأرض ما يحزب كثيرا ويسرى ، فليكن ما يكون على أن أغدو ـــ حقيقة ـــ سيد نفسى .. لكن كيف ؟

ولم ينتظر الا انقضاء العام ليعرف الجواب ، فقد أخطر بدخول

المأمون بغداد سنة أربع ومائتين . ووصل الى القصر بدعوة من ثمامة بن أشرس ، تزكيها شهادة الخليفة بدقة كتبه فى الامامة ، وحسن الاشارة عنه من جانب أحمد بن أبى دؤاد . وقد تأكد من انتهاء متاعبه عندما أسكن قريبا من دار ثمامة ، وعرف كثيرا من علية القوم ، وألحق بخدمته قهرمان زنجى وتسرّى بجارية . وعلى الرغم من أن آماله اذ ذاك كانت لا تجاوز اسـناد فرع المكاتبات من ديوان الرسائل اليه — حتى وان كان ذلك على حساب سهل بن هارون الذى كان يسعى الى ترك دار الحكمة اليه — فقد مكنت له صلته بالخليفة من أن يخلف على الديوان ابراهيم بن العباس أكثر من مرة فى غيابه ، ثم أنهى اليه رسول ثمامة ذات يوم وهو جالس مع وراقه زكريا فى بيته الخبر الأكبر :

— مولاى أبو معن يقرئك السلام ويهنئك بالديوان على أن توافيه الساعة قبل أن تلقى أمير المؤمنين فى قصر الخلد .

وأسرع الجاحظ الى دار ثمامة ، فاذا هو يخرج بنفسه اليه ويعانقه على الباب ، ثم يأخذ بيده الى الفناء الواسع الذى فرشت أرضه بالبسط الملونة ، وألقيت الوسائد والنمارق حول سماط مستدير الى حيث يكون قريبا من البستان المليء بأنواع الورود والرياحين والفاكهة .

ولم يكن هناك الا ابريق النبيذ وكأسان وطبقان مملوءان نقلا وبقلا ، وقد بدأ ثمامة ، فملأ للجاحظ كأسه ، وعب من الأخرى ثم قال :

— لقد جاءتك طواعية فما ترى يا أبا عثمان ؟

قال الجاحظ :

— ما كان لى يا أبا عثمان فقد أتانى ولكنى أخشى ابن هارون وابن خاقان وابن الخصيب ونجاح بن سلمة وآل وهب ، وكلهم كما ترى يصلح للرياسة وكتب للخليفة ، ومن ورائه جماعة تشد أزره .

قال ثمامة :

— على أنى أراهم دونك وينتقصهم عنك أمير المؤمنين ، وقد ذكر لى أنه اختبرهم فما وجد فيهم مثلك من يجمع لأقطار الكلام ويتمكن فى الصناعة حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة .

فتساءل الجاحظ بقوله :

— والجماعة ؟

فأجاب ثمامة :

— أفتسأل يا أبا عثمان عن الجماعة بعد ما كان من أمر كلامنا عنهم فى مجلس بشر بن المعتمر أمس ؟

ثم خرجا الى قصر الخلد ، وكان مقاما على شاطىء دجلة وموضعه وراء باب خراسان ، ويحوى من العجائب ما يتضاءل إزاءها قصر الذهب الذى بناه المنصور فى وسط بغداد ، وجعل له القبة الخضراء التى ترى من أطراف المدينة البعيدة وتروع بتمثال

الفارس الرامح الذى يتسنمها . وقد صادف دخولهما القصر خروج ابن الزيات وابن أبى دؤاد ، فتبادلوا السلام ، حتى اذا توسطا الردهة التى تفضى الى مجلس المأمون ، قال ثمامة :

ـــ بينهما يا أبا عثمان ما لو حمله جبلا طيىء لناءا ، لكن ما يقع بينهما حتى اليوم لا يعدو الوعيد والصخب .

قال الجاحظ :

ـــ كأنهما فأران يتحرش كل منهما بالآخر ولا ..

قال ثمامة :

ـــ أعرف ما تقول !

وأدخلا على المأمون ، فاذا هو جالس فى صدر البهو على سرير من الآبنوس مموه بالذهب وملتصق بحائط زينته النقوش الدقيقة ، وأحمد بن خالد الأحول وزيره الى جانبه وعدة من الخدم الترك يحدقون بهما . وقد أحس الجاحظ على الفور مدى ما يكنه الخليفة لثمامة ، كما لم تغب عنه نظرة الشكر التى ابتعثت من عينى الوزير فقد كان ثمامة رشحه للمنصب بعد موت الفضل ابن سهل .

وقد سلّم الجاحظ فأحسن السلام ، فقال المأمون وهو يلتفت الى ثمامة :

ـــ ينحى قليلا يا أبا معن حتى يسكن روعه وواصل أنت ما انقطع من حديثك عن الاستطاعة !

فقال ثمامة :

ـــ يا أمير المؤمنين خير من يقوم بذلك أبو عثمان هذا ، وقد شرفت برئاسة أعمال الديوان وما عليه الا أن يتحدث فى ذلك ليرينا كيف يكون الشكر منه .

٢ ـ أيام الديوان الثلاثة

لا مناص من الاعتراف بواقع لا حيلة له فيه ، وهل فى وسعه أن ينكر أنه غير راض على رغم ظفره بالمنصب الرفيع . لقد وجد أعوانه من الكتاب فى خلق حلوة وعلى تظرف أهل الفهم ، وبدا على كثير منهم وقار العلماء ، فجاذبهم الحديث وامتحنهم فوجدهم كالزبد يذهب جفاء .

فعلام أغبط نفسى ؟

وأى غناء فيمن سألته سؤال الامام لأبى معن ، فأجاب اجابة العوام ، أو اجابة مخالفينا فى القدر .. هل تعرف فى كتاب الله تعالى أنه يخبر عن الاستطاعة أنها قبل الفعل ؟ فلم يتذكر حتى قوله تعالى : « قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وانى عليه لقوى أمين » وبعضهم قال : سئلت أن تخبر عن الله فأخبرت عن عفريت لو كان بين يدى لبزقت فى وجهه ! وكان على أن أقول لو كان مثل هذا القول كفرا وافتراء على الله ومغالبة وتفويضا للمشيئة الى نفسه ، لكان سليمان ومن حضره من الجن والانس أحق بالانكار . بل لم يكن العفريت فى هذا الموضع هو الذى يسرع فيه ويذكر الطاعة ولا يتقرب فيه بذكر

سرعة النفوذ ويبشر فيه بأن معه من القوة المجعولة ما يتهيأ لمثله قضاء حاجته فيكذب ، ثم لا يرضى بالكذب حتى يقـول قولا مستنكرا ويدّعى قوة لا تجعل له ، ثم يستقبل ـــ بالافتراء على الله تعالى والاستبداد عليه والاستغناء عنه ـــ نبيا قد ملك الجن والانس والرياح والطـير وتسـيير الجبـال ونطق كل شيء ، ثم لا يزجره ، فضلا عن أن يضربه ويسجنه ، فضلا عن أن يقتله[٢٢].

عجبا لك ، فان الله تبارك لم يجعل ذلك القول قرآنا ويترك التنبيه على ما فيه من العيب الا والقول كان صدقا مقبولا ، وقد سمعه رسول الله وتلاه على الناس ـــ وما زالوا يتلونه فى مجالسهم ومحاريبهم ـــ أفما كان فى جميع هؤلاء واحد يعرف معرفتك أو يغضب لله تعالى غضبك ؟

وفى اليوم الثانى أراد أن يمزح وكان قد أدخل عليه أبو العيناء الذى اصطفاه ضمن من اصطفى من أصدقاء بغداد ، فأسر الى حاجبه أن يصل به الى حيث لا يستطيع خروجا أو رجوعا اليه . وبعد ساعة من المحاولات الفاشلة صاح أبو العيناء وكان أعمى :

ـــ يا أبا عثمان قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك !

وتسامع بالنبأ ندماؤه وأصدقاء اللهو ـــ السدرى والجماز والتمار وأبو هفان ـــ فقالوا :

ـــ ألم يقرأ فيما يقرأ : اذا ارتفعت فلا تنس وضاعة أصلك ؟

ـــ ها أنذا محسود ، وأعيّر بما كنت أعيّر به غيرى . فالأيام دول واليوم اذا كان لى فلا ندرى أين الغد منا ، وان كنا نخوض

فى القدر على ما نريد ويريد أبو اسحاق والعلاف وثمامة وبشر ومعبد . معاشر الكتاب ما أعلم أهل صناعة أكثر الى التقاطع عند الاحتياج منكم ، وأنا فى ذروة الزهد فى التعاطف عند الاختلال ، وانه ليبلغنى أن رجلا من القصابين يكون فى سوقه ، ويتلف ما فى يديه يخلى له القصابون سوقهم يوما ، ويجعلون له أرباحهم فيكون بربحها منفردا ، وبذلك يسدون خلته ويجبرون منه كسره .

وفى اليوم الثالث دخل عليه عمرو بن مسعدة ثم عمر بن فرج ونجاح بن مسلمة ، وقالوا ما قالوا . وسمع الجاحظ فأحسن السمع ، واذا كل أهل الديوان ذوو فضل وعلم وأخلاق . ولما خرجوا دخل عليه أحمد بن عبد الوهاب وهو من رفقة محمد ابن عبد الملك الزيات وأحد الشيعة المتطرفين الذين يقولون بالمناسخة والرجعة ، وقد قدم الجانب الآخر من الكتاب هابطا بسهل بن هارون الذى ينفس على الجاحظ مركزه ومنتقصا من ابن أبى دؤاد الذى يقحم نفسه فى زمرة هى منه براء ، ومشيدا بابن الزيات الذى لا يمكن أن يجاوز درجته هو ، وبعد ذلك حيا وأفاض عليه مما يراه أهلا من ثناء هو من نعيم الدنيا ، فقال الجاحظ :

ـــ حمدا لله طعمنا حتى بشمنا .

قال أحمد :

ـــ لا يا أبا عثمان ، والا فلمن الحجى ، وسداد الرأى ، والجرثومة النبيلة والنسب الأصيل ؟

قال الجاحظ :

ــ فقد رأيتك أطنبت باحمادى وحكمت بفضلى على نحو ما فعل بعض أغثاث شعرائنا بالبصرة . أتدرى ماذا كان من أمره ؟ دخل يوما على رجل من أشراف الوجوه يطعن فى نسبه فقال « انى مدحتك بشعر لم تمدح قط بشعر هو أنفع لك منه » قال « ما أحوجنى الى المنفعة ولا سيما كل شىء منه يخلد على الأيام ، فهات ما عندك » فقال :

سألت عن أصلك فيما مضى أبناء تسعين وقد نيّفوا
فكلهم يخبرنى أنه مهذب جوهرة يعرف

فقال له : « قم فى لعنة الله وسخطه ، فلعنك الله ولعن من أجابك » .

قال أحمد كالمستنكر :

ــ فأنا كهذا الغث اذن يا أبا عثمان ؟

قال الجاحظ :

ــ لا أعرف والله ، غير أنى لست ممدوحه على أى حال !

قال فى صفاقة :

ــ أنت وفقك الله فوق الظنة وعلى أكثر مما نصف ، الا أن يشاء شانئوك الطعن فيك ، والانتقاص من قدرك ، مدعين أنك لا تجيد الا أبعاضا شتى .

قال الجاحظ :

ــ ألم يدروا أن من الأبعاض يلتئم الكل ، والكل أشكال ؟

ولست أدّعى رحمك الله الاحاطة بكل الأشكال ، لكن من عجز عن نظم البعض وعن وضعه فى مواضعه كان عن بلوغ آخره وعن استخراج أى شيء فيه أعجز ، والمتح أهون من الاستنباط والحصد أيسر من الحرث . ألا دعنى أذكر أن هذا الباب ان فتح صعب اغلاقه ، فثمة من هو أكثر منى رواية أضعافا ، وأجود منى حفظا بعيدا وأوسع علما وأتم عزما وألطف نظرا وأصدق حسا ، وأغوص على البعيد الغامض وأفهم للعويص المتمنع ، ولكن الجلوس اليه ها هنا هو الأمر المعجز . وانى والله لتارك هذا المجلس لغيرى ممن يكتمل فعله وقوله جميعـــا ، ان كنا قصرنا فجئت تذكرنا بالكمال ، وهو المحال . وما أشك أن عند الوزراء فى ذلك ما ليس عند الرعية من العلماء ، وعند الخلفاء ما ليس عند الوزراء ، وعند الأنبياء ما ليس عند الخلفاء ، وعند الملائكة ما ليس عند الأنبياء . وقد أردت أن لا أكون واحدا من هؤلاء شئت أو لم أشأ ، لأن الذى عند الله أكثر ، والخلق يا ابن عبد الوهاب عن بلوغه أعجز !

واتنفض خارجا ، ولم يعد الى مجلسه هذا بعد ذلك قط . أما المأمون فقد عجب ، ولكنه قال :

ـــ لا شك أن قل شهداؤه وكثر خصماؤه .

فى حين أقبل الكتاب بعضهم على بعض يتخاشنون ويتلاومون ، وقال قائل فيهم :

ـــ خلت الحلبة .

وأعلن سهل بن هارون أسفه ، ولكنه أضاف قائلا :

ـــ طالما قلت : انه ان ثبت فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب !

٣ ـ العجلة تدور

ازداد اعجاب المأمون بالجاحظ ، وبه فتن هذا الرجل وسعى من أجله فى المجالس . وفى الوقت نفسه راح يسجل كل ما قيل عنه أو يحفظه ، ناقلا عن الجميع .. يستوى فى ذلك خصـومه وملازموه ، وان يكن نقله عن ثمامة وسهل بن هارون أعم . وكان عام عشرة ومائتين من الأعوام الحاسمة فى حياته ، فقد شهد له أمير المؤمنين فيه بالفضل على الجميع ، وحضر حفل دخوله ببوران بنت الحسن بن سهل وظفر منه بجارية أديبة أريبة ـــ وهذا شيء لم يقع لأحد ـــ وتخلى عن ضيعة سميت له عندما نثر ابن سهل رقاعا على المدعوين ، وفيها أسماء الضياع التى أزمع اهداءها لعلية القوم فى يوم الزفاف .

ولم يلبث غير قليل حتى كان من القلة التى حضرت محاكمة ابراهيم بن المهدى الذى بايع لنفسه بالخلافة ، ثم هرب حتى قبض عليه متنكرا فى زى امرأة وأدخل على الخليفة (٢٣) وجلس هو الى جانب ثمامة وأحمـد بن أبى دؤاد وابنه محمـد وابن الزيات والمعتصم والعباس بن المأمون .

وعلى قدر الحضور تفاوت الزى ، فثمة من كان يضع المبطنة ، وثمة من كان يلبس الدراعة أو القباء ، وفئة من الجند لبست الوشى وأخرى ارتدت القزاكند (٢٤) ، وعلقت الخناجر . وكان ابراهيم بن المهدى يحجل فى قيوده ، الا أنه انحنى طويلا ثم غمغم :

ـــ السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فقال المأمون ، وقد احمر وجهه الأبيض ، وراح يمسح على لحيته المسترسلة :

ــ لا سلم الله عليك ولا حفظك ولا رعاك ولا كلأك يا ابراهيم.

ولكنه بعد أن عفا عنه قال في نفسه « هذا هو الرجل العظيم ، وهذه هى الجسارة التى تمكن له ، حتى وان لم يتحصن من الكوارث كما ينبغى . ولكنها المغامرة التى أعشقها ، والتى يبسم لها أصحاب الجدود . لقد رفعته كما رفعه جده ، ومحال أن أجد الشقاء فى ظل من يرفعه هذان ، لأننى أؤمن بهما ايمانى بأن الغد لى » .

ان آراءه تبدو لى أشد أثرا مما يفتى به يحيى بن أكثم وابن أبى دؤاد ، على تفاوت ما فى قلب كل منهما من هوى الى الجماعة (٢٥) والاعتزال ، لكنى حرى أن أشعر بالخوف اذ أتبين ما ينبغى أن يؤديه مقابل جعل عجلة الأيام تدور برغم تنازع القوى.

يجب أن نقدر وندبر .. هذا حق ، لكن ليس على طريقة ابن الزيات الذى أحبه وأكره فيه غروره ، وليس على طريقة صديقه ابراهيم الصولى فى الشره والرقاعة ، أو أحمد بن عبد الوهاب فى اللؤم والطيش والجهالة ، أو ..

لكن ما بالى أعود الى أخذ الناس بعيوبهم ؟

اننا لا نستطيع أن نهيمن على الحياة بطريقة أى منهم ، لكننا نستطيع اذا اخترنا أطيب ما فيهم وحددنا الطريق . ولقد هيئت لى السبيل ، وتمكنت منهم يوما فهل ترانى أبتئس لأنى انقطعت ؟

هذا هو العـام الحادي عشر يأتى والناس بين مؤيد للعن معاوية وتصويره فى صورة الخارج على الاسلام ، وبين معارض لذلك لأن له صحبة فيكون سبّه بدعة .

وكان الجاحظ يرى أن يسب معاوية كما رآه ثمامة ، وكما أوعز الى أمير المؤمنين أن يراه [٢٦] ، وفى الجانب الآخر وقفه يحيى بن أكثم ومعه الوزير أحمد بن أبى خالد ، وأهل السنة ، وعاصفة من الكراهية .

على أى حال أمر المأمون مناديا ذات يوم فنادى « برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير ، أو فضله على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وكان لابد للجاحظ من أن يشارك فى المعركة ، فأخرج « كتاب امامة معاوية » محاجة عن صنيع الخليفة ، ودعما لرأى ثمامة وتسفيها لرأى النابتة [٢٧] الذين أثارهم استجابة المأمون للمعتزلة .

وقد لا يستبعد مطلقا أن يكون ثمامة هو الذى دفع الجاحظ الى تأليف ذلك الكتاب ويقدمه الى ابن أبى دؤاد ، كما لا يستبعد أن يكون الجاحظ قصد به الى ثمامة نفسه لأنه كتب فى رسـالة النابتة « وقد كتبت مد الله فى عمرك كتبا فى مفاخرة قحطان ، وفى تفضيل عدنان ، وفى رد الموالى الى مكانهم فى الفضل والنقص ، والى قدر ما جعل الله لهم بالعرب من الشرف » [٢٨] . وكان أبو معن ثمامة على قمة المشتغلين بهذه القضايا الى جانب اهتماماته بقضية خلق القرآن التى ظل أحمد بن حنبل بطلها الى سنوات !

٤ ـ مناقشة

ولا بأس من أن نناقش كتبه آنئذاك ، فان آراءه فيها تبدو عظيمة الحيوية . وهى تمزج بين النظر السياسى والنظر الدينى ، وتوحد بين العقيدة من حيث هى احساس عارم بالقومية ، ورغبة صادقة فى تحقيق فكرة الانسانية . وكم تبدو لنا حياته فى تلك الفترة شيئا معقدا مثقلا بضروب المنافحة اذا ما قورنت بحياة صديقه النظام الذى آثر الكلام ، وكاد يتجنب الأغمار الذين كان يحس أنه مطالب بجمعهم على رأيه فى الاعتزال .

اننا ننظر الى ما قبل والى ما بعد ، ونوازن ونقدر ، وأغلال الحكم تصل صليلا لا ينقطع فى أعقابه كلما حرك قدميه ، أو أمر كاتبه أبا يحيى زكريا أن يكتب . فهو معتزلى وأصدقاؤه معتزلة ، وأمير المؤمنين نفسه « أعظم » من يفكر فيهم ويدبر . لكن اذا كان من الناس من ينكر « فكرتهم » الاعتزالية ـــ وهى شاملة للغاية ـــ فلابد أن يوفقوا أولا بينهم وبين أنفسهم . فثمة عرب ، وهم موزعون بين قحطانية وعدنانية . وثمة مسلمون ، وهم مفترقون على موال وعرب . وثمة بيض وسود وشيعة وسنية ، وبين أولئك فئات وجماعات وزمر وشيع وأحزاب .

أما القحطانية والعدنانية التى أشار الى قضيتهم لمحا فى كتابه « النابتة » ، فقد برزوا فى اطار أدبى لم يخف قط الصراع القبلى الذى لم يختلف فى هذا العصر عما كان عليه أيام الأمويين ، وامتد الى حكم المنصور والمهدى العباسيين .

وأما الموالى والعرب فقد جمعهم فى كتاب واحد ذكره فى الحيوان بقوله : « وعبتنى بكتاب العرب والعجم ، وزعمت أن القول فى فرق ما بين العرب والعجم ، هو القول فى فرق ما بين الموالى والعرب » [٢٩] . وعنى بوجه خاص بوصف حياتهم ورصد تاريخهم وايراد حججهم بصـــورة جعلت الموالى دون ما كانوا يتطلعون اليه اذا قيسوا بالعرب ، غير أن الأمر لا يخلو من محاولة ذكية منه استهدفت التقريب بين الجميع على قاعدة اجتمــاعية عريضة . فلقد « جعل الله المولى بعد أن كان عجميا عربيا بولائه ، كما جعل حليف قريش من العرب قرشيا بحلفه ، وجعل اسماعيل بعد أن كان أعجميا عربيا » .

وهناك كتابان له يسهمان فى المعركة بطريقة ايجابية : أولهما « كتاب الصرحاء والهجناء » والثانى « كتاب فخر السودان » وتبدو القضية فيهما متماسكة الأطراف . ذلك أن الصرحاء هم العرب الخلص والهجناء هم أولادهم من الاماء أو الجــوارى ــــ وقد جعل الكتابة عنهما على سبيل المحاكمة ، يدلى الأولون بحججهم ويرد الآخرون عليهم ـــ ولما لم يهيأ للسود الخلّص [٣٠] أن يقولوا شيئا فى الكتاب الأول فقد أفرد لهم الثانى يصولون فيه ويجولون قاصدا الزنج ومن اليهم من سكان النوبة والحبشة فى المحل الأول ، وجاعلا فى المرتبة الثانية أهل السند والهنــد وسرنديب وزنجبار والصومال ، وبعض قبائل العرب القتم من أمثال بنى سليم بن منصور وأهل الحرة . وسيكون لهذه الجماعات

دورها الخطير فيما بعد ، وذلك عندما تلعب دورها فى الثورة التى نشبت فى منتصف القرن الثالث ، وكادت تطيح بالعباسيين الى الأبد (٣١) .

واذا كان من جدوى بعد أن تقاضته الحياة فى اطارها الواسع — العدنانى والقحطانى والشعوبى — كل ما أنفقه من جهود متفاوتة البواعث ، فجدوى بعث عنصر له مقوماته وتاريخه وأبطاله وشعراؤه المنافحون عنه . فهناك أرياط وأبرهة والنجاشى ، وهناك الأغربة كعباس بن مرداس وعنترة وسليك بن السلكة وبلال والمقداد بن الأسود وسعيد بن جبير ، كما أن هناك من الشعراء من لم ينبه اليهم سوى الجاحظ وهم الحيقطان وعكيم وشيخ ابن رباح . وكأنه راح يشير الى نفسه ممتدحا فيهم خصالا بغض النظر عن سواد لونهم الذى عملت الطبيعة فيه عملها ، وكأنه أيضا كان يطلب من المجتمع أن يدع هؤلاء لكى يعيشوا كما يريدون تطبيقا لمبدئه الذى كان يحرص على احترامه .

ومن بعيد كان يقدم الدليل العملى على أن « الصراحة أولا » هى التى تملى عليه أن يقول كل شىء عن أى شىء !

وما كان له بعد ذلك أن يسكت عن مشكلة « خلق القرآن » وكان يلح عليها صديقه وولى نعمته ثمامة بن أشرس . ونطالع فى كتاباته أنه اضطر الى أن يواجهها بصراحته المعروفة ، لكن بدأ بها مجرد مراقبة لهذا الشيخ الذى كان يقعد فى المسجد الجامع ببغداد — هو ابن حنبل — ويهاجم كل عالم يستعين بالعقل والقياس

فى المسائل الاعتقادية ، مركزا أولا على الحارث بن أسد المحاسبى الزاهد المتصوف ، ثم متطرقا الى نقد محاولات أمير المؤمنين أن يعلن القول بخلق القرآن بعد أن اعتنقه رسميا فى ربيع الأول سنة ٨٢٧/٢١٢ ، يسنده الى جانب ثمامة أحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة .

على أن الجاحظ لم يكن رجل علم ودين فحسب ، وانما كان أيضا رجل دنيا يعرف أنها أبدع ما تكون فى حضن جارية وعلى مائدة نبيذ وبين أمثال التمار والجماز والسدرى من المتماجنين اللاهين .

وهو يؤكد أن « الجميع » مثله .. حتى الخليفة نفسه ، وهذا السنى المتزمت ـــ يعنى ابن أكثم ـــ يرفض الا أن يجعل كاتبه زيد بن أيوب قوادا ، فى حين كان النظام يصرح ـــ وقد أصبح العلم فى الاعتزال ـــ أن معاشرة الغلمان لا تهبط بقدر الرجل قط !

واذن فليكتب فى هذا الجانب اللاهى الطريف . وفى سنة خمس عشرة ومائتين يضع « كتاب المقينين والغناء والصنعة » فى صورة رسالة [٣٢] تنقسم قسمين : أولهما فى دفع اتهام الخصوم ـــ عنه بصفة خاصة ـــ والثانى : فى بيان مزايا القيان وصناعة التقيين ، موضحا كثيرا من حياة المقينين المؤثرين للذة ، ومحددا أبرز العلاقات التى تنشأ عادة بين القيان ورواد دورهم من الربيطين .

ولم يكن الجاحظ بحاجة الى أن يقول « فوضعنا فى كتابنا هذا حججا على من عابنا بملك القيان ، وسبنا بمنادمة الاخوان وتقم

علينا اظهار النعم والحديث بها » لأنه هو نفسه كان يجاهر بحقه فى أن يعيش دون أن يجعل لاستقباح الناس واستحسانهم سبيلا الى منعه من نعمة متاحة ، وبخاصة أن « كل شيء لم يوجد محرما فى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمباح مطلق » ولم نعلم للغيرة فى غير الحرام وجها ، ولولا وقوع التحريم لزالت الغيرة ولزمنا قياس من أحق بالنساء فانه كان يقال : ليس أحد أولى بهن من أحد ، وانما هن بمنزلة « المشام والتفاح » الذى يتهاداه الناس بينهم !

ومع كل هذا فقد كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث ، وتزوج الحسن بن على حفصة ابنة عبد الرحمن ، على الرغم من أن المنذر بن الزبير كان يهواها ، وكان معاوية يأتى بالجارية فيجردها من ثيابها بحضرة جلسائه ، ونظر المأمون الى سكر فاحتال حتى وقع عليها ثم خلى سبيلها ، مع أنه دفع فيها عشرة آلاف درهم .

تلك هى الخطوط العريضة لشخصية الجاحظ الشهوان .. جريئة مقدامة ، ولا تختلف كثيرا عما كانت عليه قبل أن يشيخ ويتحمل مسئولية رجل العلم والدين والأخلاق . وربما لا يبدو فيها حكيما ، غير أنه يكشف بوضوح عن أن أيامه فى بغداد غدت مهرجانا صاخبا — لعله كان أشد مهرجانات بغداد — قصبة اللهو والبذخ والجوارى والنبيذ — تبذلا . ولكنه نجح فى أن يظهره برصانة يحدها المنطق ، وتتراءى لعيوننا أشباح القيان والربيطين

والمقينين فى مظهر مشروع ، على أساس الفكرة التى تقرر أن تجارة الرقيق من التجارات القانونية التى تقع عليها المساومات والمشاراة بالثمن ، ويحتاج البائع والمبتاع الى أن يستشفا « البضاعة » ويتأملاها تأملا بينا .

وأنا يا هؤلاء المستمتعين بالنعمة — من أمثال موسى بن اسحق بن موسى ومحمد بن خالد وعبد الله بن أيوب وأبى الخيار وأبى الرنال ومحمد بن هارون كبة — مبين لكم الحسن وأساليب مكالمة القيان ومفاكهتهن ومغازلتهن ، وكاشف أيضا عن الحب والهوى والمشاكلة والالف [٣٣] ، وله ابتداء فى المصاعدة ووقوف على غاية ، وهبوط فى التوليد الى غاية الانحلال ووقف الملال .

قد تقولون عنى متبجح مدع مغرور ، ولكنى أصدقكم كل شيء . فلى نظرى وخبرتى الطويلة التى تطالبنى بأن أقول لكم مثلا : ان عشق القيان — على كثرة فضائلهن — آفة ، وان اللذات كلها انما تكون بالحواس ، ولا شيء بعد ذلك كما يزعم المتصوفة والنساك !

٥ ـ رحلة جديدة

وفى البذندون — وهى قرية بينها وبين طرسوس يوم — قضى الجاحظ مع أمير المؤمنين المأمون آخر يوم فى حياته ، وكان لثمان خلون من رجب سنة ثمانى عشرة ومائتين ، وتناول معه فيه بالتعليق على عملية امتحان القضاة والشهود فى خلق القرآن ، وامتناع ابن حنبل من التسليم بذلك والقاء القبض عليه .

ثم انسحب بعد أن دخل المعتصم ليأخذ قسطه من الراحة مع أخيه على ضفة النهر ويأكلا من رطب جيء به اليهما على عجل . وكان قد أعد عدته ليعود الى بغداد ، بعد أن تاق اليها وزهد — على حبه للرحلة — فيما اعتاد أن يراه كلما خرج مع الخليفة غازيا أرض الروم أو زائرا الثغور .

ان الشيخوخة تسلمه الى شيء من الفتـور ، ولكنه فتور سرعان ما يزول اذا أطلق لنفسه العنان فاستمع الى الغناء ، واحتضن القيان ، وأنشد الشعر ، وروى النوادر التى كان يتفنن فى عرضها . وربما اضطر أحيانا الى مخاشنة رفقائه ، وكان هؤلاء يسكتون عنه خشية سلاطته وسرعته الى التهكم ، سئل أبو هفان ، وقد طال تعريض الجاحظ به « لم لا تهجوه وقد ناد بك وأخذ بمخنقك ؟ » فقـال :

— أمثلى يخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست الا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت فى ألف سنة .

وقبل أن يموت سـهل بن هارون بأيام قال له صديقه مع ابن زياد « يعيبك هذا الجاحظ فى المجالس وتسكت عنه ؟ » فقال :

— والله لئن أجبته لجاوز ما أقول المجالس الى الدفاتر ، فنال اذن من الشيبة وأضاع الهيبة .

لكن ماذا يفعل ؟

انه يريد شيئا لم يقـدر عليه أحد . ليس للمنصب الرفيع أطمح ، فأنا لا أزال كما كنت ، وكل ما جد من حالى اليوم أنى بدأت أخاف . وأعوذ بالله من الضعف وما يجر من المطامع الدنية ، والهمة القصيرة ، ومن ابتـذال الحرية ، وان نفسى والله أبيّة ما سقطت وراء همة ، ولا خذلها ناصر عند نازلة ، ولا استرقها طمع رخيص .

ولكن فى هذه السن .. سنى أنا أطلب الكبير ، فما عساه يكون ليرضى أمير المؤمنين ويغبط به هذه الطغمة الملتفة حوله ؟ وقبل أن يأتيه الجواب صاح صائح :

— أمير المؤمنين محموم .

ونقل المأمون وهو نصف متيقظ ، وزاره طبيبه المرافق له — وهو أبو زكريا يحيى بن ماسويه — ووصف الدواء . ولكن لم تكد شمس اليوم تغيب حتى كان يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يوصى لأخيه المعتصم .

لقد جـرى كل شىء بسرعة ، وكان وصـول الجاحظ الى دار السـلام يوم مبايعة المعتصم وهو يشعر بمرارة حقّيقية ، ويتوجس خيفة من هذا الخليفة المربوّع الذى حمل ذات يوم بابا من حديد يزن سبعمائة رطل وخمسين ، وفوقه عدل فيه مائتا رطل وخمسون . وعندما شغب عليه الجند ونادوا باسم العباس بن المأمون ود لو تم الأمر للعباس ، ولكن الخليفة الجرىء واجه الجند

بابن أخيه فانصاعوا له (٣٤) . وماتت رغبة لم تكد تولد حتى وئدت مسرعة .

غير أن ما تعاقب من أحداث دل على أنه كان أكثر تشاؤما مما ينبغى ، بل دل على خطأ التشاؤم بوجه عام . فقد استمر كل شيء كما كان وان يكن وزر الفضل بن مروان ، وظلت سياسة الدولة واتجاهاتها الدينية وقضاياها الفكرية قائمة على القواعد التى أرساها المأمون . واذا كان ثمامة بن أشرس قد مات فقد أصبح رجل القصر أحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة ، وعلت مكانة ابن الزيات الذى كان الجاحظ يجله ويروى شعره فى مجالسه الخاصة والعامة .

وقبل أن ينتقل الى سامرا وقعت الجفوة بينه وبين النظام ، وكان هذا قد بدأ ينفس عليه التفاف الناس حوله ومناقشته آراءه وتزيده عليها أو انتقاصه منها أحيانا ، وربما شعر بأنه بعد أن تشرب الاعتزال وحفظ أصوله وشعّب فيها وفرع أصبح خطرا عليه لما يمتاز عنه بنصاعة البيان وسرعة اللسان . والعجيب أنه كان فى الوقت نفسه يشكو « هجر » صديقه له وانصرافه عنه الى فلان وفلان .

ولا تتحدث المصادر عن حقيقة ما كان بينهما ، غير أننا اذا تعجلنا وقلنا ان عام ٢٣١ ـــ وفيه مات النظام ـــ لم يكن النهاية الحقيقية للعلاقة بين الصديقين لم نخطىء ، كما لا نخطىء حين نزعم أن التنافس القديم الذى خمـــد سنوات عاد عارما أيام

المعتصم ، وبخاصة عندما أصبح الجاحظ شيخا من شيوخ الاعتزال له مريدوه ، ينتقلون اليه فى سامرا حيث يجتمعون به فى داره التى كانت تلاصق دار ابن الزيات .

ولكن علاقته بهذا الرجل تلفت النظر ، فقد طغت على كل علاقاته الأخرى ، وربما كانت أحد مبررات شكوى النظام . وكان ابن الزيات نفسه قد وصل بسرعة الى الوزارة — بعد أحمد ابن عمار الذى خلف الفضل بن مروان ، واستقبح منه المعتصم جهله فعزله — من النماذج التى يرتاح اليها الكثيرون . فهو عالم وأديب وشاعر وسياسى ماهر ومفكر طموح ، تولى أولا ما كان يتولاه للمأمون من عمل « المشمس والفساطيط وآلة الجمازات » ثم كتب فى القصر مصاحبا لعمرو بن مسعدة وابن خاقان وابراهيم ابن العباس ، ولما جاء أبو عثمان المازنى بغداد راح يقول كلما اختلف تلاميذه فى احدى مسائل النحو : « ابعثوا الى هذا الفتى الكاتب — ابن الزيات — اسألوه واعرفوا جوابه » .

اننا لا نلبث أن نرى الجاحظ فى ركاب ابن الزيات ، حتى فى ساعات سخطه ، وكان هو فى الواقع حاد المزاج متقلب الهوى ، يرضى فيصل الى أقصى درجات الرضى الكامل ، ويسخط فينتهى به السخط الى الحقد المدمر .

وفى هذه الفترة — بوجه خاص — تمكن من أن يصل الى الشىء الذى لم يقدر عليه أحد ، وطالما بحث هو عنه ، وعرف أنه لابد أن يكون سفرا عظيما ، يسكت به جماعة الكتاب . وقبل أن

يملى على وراقه « كتاب البخلاء » ملأت الدنيا كتيباته التى اعتاد أن يبعث بها الى معارفه وفيها يثير ما يثير من القضايا ويبسط ، ما جعله شيخا للكتاب .

٦ ـ مدح التجار

ـــ ما رأيك يا أبا عثمان فيما صنع أمير المؤمنين بابن حنبل ؟

وتطلع الجاحظ الى عينى ابن الزيات ، كأنه يريد أن يستشف ما وراءهما ، ثم قال :

ـــ لقد أوجع أبا عبد الله قاضى القضاة ، والسعيد يا أبا جعفر من وعظ بغيره .

قال ابن الزيات :

ـــ فأنت اذن كاره اطلاقه واطلاق الهدايا له .

قال الجاحظ :

ـــ بل معجب به ، فانه لما ضرب سوطا قال باسم الله ، وفى الثانى قال : لا حول ولا قوة الا بالله ، فلما ضرب الثالث قال : القرآن كلام الله غير مخلوق وهذه فرية ، فلما ضرب الرابع قال : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » . ويروون أن تكة سراويله عندما قطعت لم تظهر عورته لأنه رفع رأسه الى السماء وقال : اللهم انى أسألك باسمك الذى ملأت به العرش ان كنت تعلم أنى على الصواب فلا تهتك لى سترا !

قال ابن الزيات :

ـــ مالهذا قصدت يا أبا عثمان ، ولكنى سألت رأيك فيما صنع أمير المؤمنين بأحمد ؟

قال الجاحظ :

ـــ هذه حكاية قديمة يا أبا جعفر .

فقال ابن الزيات :

ـــ انها اليوم تتكرر أو مثلها يحدث ، فما رأيك ؟

فقال الجاحظ :

ـــ أرضى العامة وأغضب متكلمينا ، على أننى أزعم أنه على فضله لا يدرى من العلم الا أندره ، وما حمل الناس على القول بخلق كتاب الله الا لأن أخاه رحمه الله أوصى اليه بذلك .

قال ابن الزيات :

ـــ ونفخ به فى أذنيه أبو عبد الله وزمرته .

قال الجاحظ :

ان ابن أبى داود على حق .

قال ابن الزيات :

ـــ هو والله من فقهاء السوء .

قال الجاحظ :

ـــ ليس أكثر سوءا من ابن أكثم يا أبا جعفر .

قال ابن الزيات :

ـــ أعرف رأيك فى الحاشية يا أبا عثمان ، وكلهم من جلة الكتاب ، فلماذا ترفعه عليهم وفيه نعومة الأفعى وبقمه سمها ؟

قال الجاحظ :

أشار على المعتصم بك للوزارة ، فلماذا تنفر منه وتعاديه ، وتريدنى على أن أتحول عنه ؟

فأجاب ابن الزيات بحدة :

ـــ لتحوله عن الجادة ، وسيفعل بنا الأفاعيل اذا لم نصده ونقصده بسهامنا .

قال الجاحظ :

ـــ والله يا سيدى لا أدرى ، ولكنى أنصح بالريث ، وان يقظة الفهم للواعظ مما يدعو النفس الى الحذر من الخطأ ، والعقل الى تصفيته من القذى .

قال ابن الزيات :

ـــ مرحى مرحى .. هذا كل ما نظفر به منك ، ولكنى أطلب منك الساعة أن تختار واحدا منا ، ووالله من لم يكن من خاصتى فهو عدوى حتى تقوم الساعة .

فقال الجاحظ بهدوء :

ـــ اننى أختارك يا أبا جعفر ، ولكنى أزعم لك أنك كثَّرت شانئيك ، ومنذ احتجبت دون الناس ولم تأذن للضعيف منهم حتى ينبسط لسانه تنهشك ألسنة يعلم الله أنى أريد قطعها بيدى قبل أن يقطعها سيفك .

قال ابن الزيات

ـــ وماذا تنتظر من طغمة ساءها قعودي هــذا المقعــد ، وقالت يتولانا تاجر يبيع الزيت ، وقد ربينا نحن فى الديوان كما ربى آباء لنا من قبل ، وأمس فقط وصلتنى رقعة فيهـــا هذا الشعر الذى أهجى به قاله ابن أبى دؤاد الكبير :

أحسن من خمسين بيتا سدى   جمعـــــك اياهنّ فى بيت
ما أحـــوج الناس الى مطرة   تذهب عنهــم وضر الزيت !

وكان فى مجلس ذم فيه التجارة ، وامتدح أعمال السلطان .

قال الجاحظ :

ـــ فليقل ما شاء أن يقول ، وأما أنا فسأجيب عنه فى كتاب يصفنا وقد كنت تاجرا أيها الوزير بما نحن أهل له من كريم الخصال .

وانصرف مسرعا الى داره القريبة وعاد فى الغد ومعه « رسالة مدح التجار وذم عمل السلطان » ولم يشرع فى قراءتها الا بعد أن تساءل :

ـــ من فى الديوان يا أبا جعفر ممن تراه جعلته هدفا لى ؟

قال ابن الزيات :

ـــ عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وابنا المدبر ، ومحمد ابن الفضـــل الجرجرائى ، وابراهيم الصـــولى ، وابنـــا وهب وابن الخصيب ، و ....

قال الجاحظ : ربما اختلفنا بعض الشيء ، ولم أذكر اسما واحدا على أى حال ، ولكنى وصفت خصومنا بأنهم من حشوة أتباع السلطان ، وسيشعر كل من يقرأ كتابى من المقصود وغير المقصود بما أقول :

وراح يقرأ الرسالة . فاذا ثمة فئة فتقتها الفطنة وأرهفها التأديب تعترف بفضيلة التجار لأن فى محيطها نشأ الاسلام « وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه ، وصفيه من عباده ، والمؤتمن على وحيه من أهل بيت التجارة ، وهى معولهم وعليها معتمدهم » . وقد كان الرسول نفسه تاجرا ، فعلى أى شيء يعتمد هؤلاء الكتاب وأصفياء الخليفة فى مخاصمتهم لنا ، وهم شعوبية ؟ أعلى الماضى ؟ وهل لم يجدوا فى ماضينا نحن التجار من سبق الى الفضل والعلم والأدب ؟

ومن ناحية أخرى نرى أن أكثر وجوه المعتزلة تجار ، فمحال أن تجد هذه الحاشية فينا ما يشين ، وما قالت هذه ما قالت الا حسدا وحقدا . مع أن الأولى بها أن تكون أحرص على الصلح بين الناس ، مادامت تتولى أمر الناس .

٧ ـ الواثق

بعد هذا الكتاب اشتدت ضراوة الحاشية وزاد كيدهم ، وأثيرت العصبية على نطاق جمع وجوه القوم وعامتهم . ولكن ابن الزيات كان من القوة بحيث مضى فى طريقه لا يلوى على

شيء ، وأتاح للجاحظ الفرص فكتب « فضل هاشم على عبد شمس » و « كتاب أخـلاق الملوك » ليجنب الخليفة وآله ماترششه المعركة . وفى الوقت نفسه جمع اليه قواد الترك ليجـعل معظم رجال الجيش خـارج الصراع الفعلى ، فألف « كتاب مناقب الترك وعامة جند الخلافة » منبها الى أن هذا الجنس أصبح قوة يحسب لها ألف حساب ، وبخاصة بعد أن أقصوا عن بغداد وكونوا طبقة تمتاز بالقوة والصرامة والجراءة ، ولا تعرف « الملق ولا الخلابة » ، ولا النفـاق ولا السعاية ، ولا التصنع ولا النميمـة ، ولا الرياء ولا البذخ على الأولياء ، « ولا البغى على الخلطاء » وهذه كلها صفات معروفة فى عمـال الدولة وكتابها وأمرائها من غير بنى هاشم .

ولما كانت ماردة أم المعتصم تركية ، وكان هو يميل بهواه الى الترك فقد حرص الجاحظ ـــ وكأنه أحس أن الكتاب لابد واصل لأمير المؤمنين ـــ على أن لا يذكر سوى فضائلهم . وأما نقاط الضعف ومواطن الغمز ، فقد ضرب بها عرض الحائط ، مذكرا اياه فى الوقت نفسـه بضرورة التنبّه اليهم وبما ينبغى أن يكون عليه موقفه ازاء سائر الأجناس « من الحلم فى موضع الحلم ، والعقو فى موضع العفو ، والتغافل فى موضع التغافل ؛ درءاً للفتنة وايثارا للسلامة » .

واذ أصبح ابن الزيات فى مأمن من الغارة راح يضرب بعنف وبلا شفقة حتى أصبح يردد بين حين وحين « الرحمة خور فى

الطبيعة » . وجعل تنورا من حديد وبه رؤوسها الى الداخل يعذب فيه من يوقع به ، متذرعا بأنه لا يفعل ذلك الا ليحفظ للدولة كيانها وهيبتها .

وبلغت به الجرأة حدا كان يراجع فيه الخليفة . ولقد طلب اليه ذات يوم أن يعطى ابنه هارون الواثق عشرة آلاف ألف درهم يستعين بها على أموره ، فدافعه مدافعة متصلة أحوجته الى أن شكاه لأبيه المعتصم ، فأنكر هذا عليه تأخير المال فقال :

ـــ يا أمير المؤمنين ، العدل أولى بك وأشبه بعقلك ، ولك عدة أولاد ، أنت فى أمرهم بين خلتين : اما أن تسوى بينهم فى العطية فتجحف ببيت المال ، واما أن تخص بعضهم فتخيف على الباقين .

فقال له :

ـــ قد رهنت لسانى بشىء ، فماذا أصنع فيه ؟

قال :

ـــ تأمر لباقى أولادك بأشياء أخر من اقطاعات وصلات ، وتطلق لهارون صدرا من المال وتدافعه بباقيه ، وتتسع أنت قليلا ، وتدبر الأمر بعد ذلك بما يراه أمير المؤمنين .

فقال له :

ـــ وفقك الله ، فما زلت أتعرف الخيرات فى رأيك والسداد فى مشورتك !

وتأدى الخبر للجاحظ ، فقال :

ــ أتظن هارون يسكت ؟

فأجاب :

ــ بلغنى أنه قال : ان أفضيت الخلافة قتلنى الله ان لم أقتله .

فتساءل الجاحظ :

ــ وماذا أعددت لهذا الأمر ؟

أجاب :

ــ فى بنى هاشم من هو أولى منه بهذا الأمر يا أبا عثمان .

ولكن الأيام لم تمهل أحدا ، فمات المعتصم وبويع لهارون الواثق فى اليوم نفسه الذى ودع فيه أبوه الدنيا ، وكان ذلك لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين . وكان أحمد ابن أبى دواد وراء البيعة ، فآثر ابن الزيات أن يختفى . ولكن حاجة البلاد اليه أبقت عليه ، فقد استدعاه الخليفة الجديد ، ولما مثل بين يديه قال لمولاه وصيف .

ــ امض الى دايتى وقل لها توجه الىّ بالدرج الذى كلمتها فيه .

فمضى وصيف فوافى بالدرج ففتحه ، وأخرج رقعــة دفعها الى ابن الزيات فقرأها . واذا فيها بخط يده حلف بعتق عدة

من عبيده ، وحبس عدد من خيله ، وبوقف عدة ضياع ، وبصدقة مال جليل أنه اذا ظفر بابن الزيات قتله ، ولهث الوزير ، ثم قال :

ــ يا أمير المؤمنين أنا عبد من عبيدك ، فان وفيت بيمينك فأنت محكم ، وان عفوت وصفحت كان أشبه بك .

فنهض الواثق بجسمه العريض الطويل ، وربت عليه قائلا :

ــ لا والله لا يمنعنى من الوفاء بيمينى الا النفاسة أن يخلو الملك من مثلك .

وأمر بعتق العبيد الذين حلف بعتقهم وبوقف الضياع وحبس الخيل وصدقة المال ، فكان هـذا مازاد فى بطش ابن الزيات . وأخذ ينكل بالكتاب والمستوزرين من أمثال سليمان بن وهب ، وأحمد بن الخصيب ، وابراهيم بن العباس الصولى ، وقد قال هذا الأخير :

ايه أبا جعفر وللدهر كر ... ات وعما يريب متسع
أرسلت ليثا على فرائسه ... وأنت منها فانظر متى تقع
لمظته قوته وفيك له ... اذ تقضت أقواته شبع

ومن ناحية أخرى جعل أحمد بن أبى دؤاد يغرى الواثق بالايقاع بهذا الطاغية ، وأمر الشاعر على بن الجهم ، فقال فيه أرجوزته :

هارون يا ابن سيد السادات
أما ترى الأمـور مهمـلات
تشـكو اليك عـدم الكفـاة

ولقد هم الواثق بالقبض عليـه ، ولكن عامله اسحاق ذكر للجاحظ أنه قال له :

ــ أمثل ابن الزيات مع خدمته وكفايته يفعـل به هـذا ، وما جنى عليك ولا خانك ، وانما دلك على خونة أخذت ما اختانوه ، فهذا ذنبه ؟

قال الواثق :

ــ لقد طغى حتى انه ليتحدث فى ولاية عهدى بما لا أحب .

قال اسحاق :

ــ ليس ينبغى يا أمير المؤمنين أن تعزل أحدا حتى تعد لمكانه جماعة يقومون عليه ، فمن لك بمن يقوم مقامه ؟ ان كان لابد لك أن تفعل شيئا ، فأصلح بينهما !

قال الخليفة :

ــ من هما ؟

فأجاب اسحاق :

ــ الوزير وقاضى القضاة !

كل شيء اذن كان مهيئا لكي يكتب الجاحظ ، ولكن أسلوب ابن الزيات لم يعجبه على الاطلاق ، ولا سيما بالنسبة لموقفه من ابن المدبر وابن العباس الصولى ، ومن ناحية أخرى كان يحرص على التمسك بصداقة أحمد بن عبد الوهاب المتعالم ، وابن الجهم المتشاعر . ولعله آلمه أن يقبض عنه يده شيئا فى أيامه الأخيرة على الرغم من أنه جعل له فى البصرة ضيعة كبيرة مساحتها أربعمائة جريب سميت « الجاحظية » والغريب أنه كان يلح عليه أن يكتب أشياء عن البخلاء .

فى هذه الآونة كتب الجاحظ « رسالة الجد والهزل » بعد أن جفاه ابن الزيات ، أو بعد أن كان يتعمد تغافله بصورة جعلته أشبه بالاهمال الذى يورث الاغفال ، مما دفع بالجاحظ الى أن يترك سامرا وبغداد ويلزم الجاحظية معلما وراوية وشيخا كبيرا .

وفى الرسالة يصرح بأن ما بينهما لا يمكن أن يكون قطيعة . حقا هناك خلاف ، ولكنه خلاف قائم على أن ابن الزيات صاحب تتاج وصناعته جودة الخط ، وهو صاحب كلام وصناعته جودة المحو .

وابن الزيات كاتب خراجى زرعى ، وهو أمى عشرى نخلى ، وقد «بلغ الآن من جرمى فى مساواتك فى خبز الخشكار ، وايثارى الباقلى ، والمعرفة بتقدير المدن ، واجراء القنى ، أن أنفى من جميع

الأرض ، وأن تجعل فى دمى الجعائل ، فانى قد هجرت الخبز البتة الى مواصلة التمر ، ونزلت الوبر بدلاً من المدر » .

لم يقم عداء حقيقى ، ولكن الجاحظ آثر العزلة ، وكأنه أحس أنه أشرف على النهاية . غير أنه كان يأخذ الأمور من وجهها الضاحك ، أو لعله وجد أن خير ما يواجه به الأمور هو أن يسخر منها . وقد انتهز فرصة مرور أحمد بن عبد الوهاب على البصرة فى طريقه الى الحج سنة ٢٣١ ــ وكان فى حاشية جعفر بن دينار أحد قواد الأفشين فى حرب بابك ــ فالتحم معه فى ملاحاة كلامية خاشنه فيها ، وكان من نتائجها « رسالة التربيع والتدوير » وفيها جماع رأيه فيه وفى أمثاله الذين طالموا ضايقوه وضيقوا عليه ، وفى ذات الوقت تتضمن فلسفته وثقافته ونظرته الى الحياة . فأحمد بن عبد الوهاب من الرافضة المشبهة ــ ويبدو أنه استأثر بما كان له عند ابن الزيات بعد فراقه ــ وهو على صلفه وفى بحره الطامى من التيه لا يعرف من أمور الدنيا شيئا ، ولا يفقه فى العلم، ويدعى الحكمة وقول الحق والصواب ، مع أن « الخطأ كثير غامر ، ومستول غالب ، والصواب قليل خاص ومقموع مستخف »

أحمد بن عبد الوهاب هذا مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول ، وهو مربع حتى لتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدورا . ثم هو جعد الأطراف قصير الأصابع ، ومع ذلك يزعم السباطة والرشاقة ، وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعى أنه طويل الباد رفيع العماد ، عادى

القامة عظيم الهامة ، قد أعطى البسطة فى الجسم والسعة فى العلم ، وكان كبير السن متقادم الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد » .

والجاحظ على أى حال لا يرى حقيقة أن خصمه على هذه الدرجة من التشويه الخلقى ، ولكنها السخرية والرغبة فى التهكم والولع بالجدل والسفسطة . وما كان له بعد ذلك أن يغمض عينيه عن تشويه عقله بالقاء الأسئلة أمامه وتركها بدون جواب، عارضا لقضية أصل الانسان وما بينه وبين القرد من تشابه ، ومتكلما عن نظرية اللون ومشكلة انتقال الصوت وعمليتى المد والجزر وأثر القمر فيهما ، وما استفاض من أخبار بعيدة غريبة كأنها الأساطير .

وعلى هذا النحو يقمع مراء هذا المتعالم الصفيق ، ويظهر هو مرنا للغاية ، قادرا على أن يصول ويجول متمكنا من أن يتسع بالحوارين العقلى والنفسى اتساعا شديدا . فاذا هو يقف تارة فى جانب القصر يحتج له ، وتارة أخرى يقف فى جانب الاعتدال ، ثم قد يحتج للطول ويدلى فى احتجاجه بمختلف البراهين. وفى كل ذلك يمد خصمه ويطويه ، ويبسطه ويبعجه ويدوره ، ويتركه فى آخر الأمر مسخا مضطربا مخلطا لا هو انسان ولا هو حيوان ، ولا يفكر ، ولا يحس . وليس فى ذلك أى عجب ، لأن العيون تخطىء والحواس تكذب « وما الحكم القاطع الا للذهن وما الاستبانة الصحيحة الا للعقل » وهذه أشياء افتقدها ابن عبد الوهاب :

« الناس وان قالوا فى الحسن كأنه طاقة ريحان ، وكأنه خوط بان ، وكأنه قضيب خيزران ، وكأنه غصن بان ، وكأنه رمح رديني، وكأنه صفيحة يمانية ، وكأنه سيف هندوانى ، وكأنها جان ، وكأنها جدل عنان .. فقد قالوا كأنه المشترى ، وكأن وجهه دينار هرقلى، وما هو الا البحر ، وما هو الا الغيث ، وكأنه الشمس ، وكأنها دارة القمر ، وكأنها الزهرة ، وكأنها درة ، وكأنها مهاة ! فقد تراهم وصفوا المستدير العريض بأكثر مما وصفوا به القضيف والطويل، وقلت : وجدنا الأفلاك وما فيها ، والأرض وما عليها ، على التدوير دون التطويل ، وكذلك الورق والتمر والحب والثمر ! وقلت : والرمح ان طال فان التدوير عليه أغلب لأن التدوير قائم فيه موصولا ومفصلا ، والطول لا يوجد فيه الا موصولا ، وكذلك الانسان وجميع الحيوان ! وقلت : ولا يوجد التربيع الا فى المصنوع دون المخلوق ، وفيما أكره على تركيبه دون ما خلى وسوم وطبيعته ، وعلى أن كل مربع ففى جوفه مدور . فقد بان المدور بفضله ، وشارك المطول فى حصته . ومن العجب أنك تزعم أنك طويل فى الحقيقة ، ثم تحتج للاستدارة والعرض ، فقد أضربت عما عند الله صفحا ، ولهجت بما عند الناس » .

٩ ـ كتاب البخلاء

وفى البصرة ترامت اليه الأخبار ، فلا يزال الكتاب والمستوزرون يشنعون عليه ، وابن الزيات ــ على ما ذكر له ابراهيم بن السندى بن شاهك الذى يزوره ــ ودع الأدب الى

تعقب الخصوم ، ولم يعد يتذاكر مع غيره الا عيوبه فيما ألف ، وأما رسالة التربيع والتدوير فلم تفعـل أكثر من اثارة الغيظ والحسد .

وعندما قيل له : ان الحسن بن وهب كاتب ابن الزيات سعى لأبى تمام حتى وافق ابن الزيات على أن يوليه بريد الموصـل ، قال :

ـــ لا يزال الشعر عنده بخير ولله الحمد .

فقد أحس أنه يحبه عندما راح ابن السندى ينشده شعره . غير أنه فجع عندما وصل البريد فى اليوم التالى بموته وهو لم يزل فى الأوج ، وبعدها بيوم واحد جاءه نعى صديقه ابراهيم النظام ، فاستقبله بالصبر الجميل وقال :

ـــ بدأت والله مهمتنا فى الكلام .

ولكنه كان قد شرع فى املاء وراقه أشياء عن البخلاء ، وقرر ان أتمه ليخرج به الى الوزير فنال الجائزة منه أو الموت . وكان عزمه على أن يقدم شيئا لم يقدمه أحد أو لم يقدر عليه أحد حافزا الى أن يتكىء على نفسه ، وان يكن اعتمد أخبارا كثيرة حفظها فى أوراقه . فراح يولد الأقوال ، ويضع الأحاديث ، ويفتن فى ذلك شتى الأفانين . وعلى ما فعل فى « التربيع والتدوير » وفى أكثر كتبه أخذ يحتج ، ويسوق الروايات على لسان بعض من عرفوا بالبخـل ممن عرفهم كسهل بن هارون والأصـمعى والكندى

والثورى والمروزيين . وحرص تماما على الذهاب بحججه مذاهب مختلفة ، فهو يسوقها مرة ، مساق الجد — وان شابتها السخرية — ومرة أخرى يزجى بها فى تهكم مرير .

وبين الأحاديث المسهبة ، والرسائل الطويلة والنوادر المقتضبة ، والقصص الطريفة — حرصا على استجلاب الرغبة ودفعا للسأم والملل — عاش أياما نسى فيها موت ابراهيم ، وأسف المعتزلة عليه ، ثم أعلن أنه أتم الكتاب ، وقد استدعى كاتبه بعد يوم راحة وقال له :

— أما وقد انتهينا من الجسم ، فلنجعل الوجه جميلا ، اكتب يا أبا يحيى : تولاك الله بحفظه ، وأعانك على شكره ، ووفقك لطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته !

وتوقف قليلا وابتسم ، لكنه راح يقدح زنادَ فكره . أى شىء كان بينهما ؟ وماذا كان يقول له عندما كانا يتذاكران ملح الحرامى ، ويقرءان كلام سهل بن هارون ، ويتناقشان فيما ألفه عن سراق الليل ولصوص النهار ؟

— ذكرت حفظك الله أنك قرأت كتابى فى تصنيف حيل لصوص النهار ، وفى تفصيل حيل سراق الليل ، وأنك سددت به كل خلل ، وحصنت به كل عورة ، وتقدمت بما أفادك من لطائف الخدع ، ونبهك عليه من غرائب الحيل فيما عسى أن لا يبلغه كيد ولا يجوزه مكر ، وذكرت أن قدر نفعه عظيم ، وأن التقدم فى درسه واجب .

ومرة أخرى توقف .. فالانسان مجبر على أن يقول الحق ، ومـاذا اذا اعترفت فأرضيت نفسى وأشبعت غـروره ، اكتب يا أبا يحيى أم قد تعبت وأخذتك الشيخوخة :

ــ وقلت اذكر لى نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء وما يجوز من ذلك فى باب الهـزل ، وما يجوز منه فى باب الجد ، لأجعل الهزل مستراحا والراحة جماما . فان للجد كدا يمنع من معاودته ، ولابد لمن التمس نفعه من مراجعته .. وذكرت ملح الحرامى ، واحتجاج الكندى ، ورسالة سهل بن هارون ، وكلام ابن غزوان، وخطبة الحارثى ، وكل ما حضرنى من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم، ولم سموا البخل اصلاحا والشح اقتصادا ، ولم حاموا على المنع ونسبوه الى الحزم ، ولم نصبوا للمواساة وقرنوها بالتضييع ، ولم جعلوا الجود سرفا والأثرة جهـلا ، ولم حكموا بالقوة لمن لا يميل الى ثناء ولا ينحرف عن هجاء .. بالله توقف يا أبا يحيى ، ولكن أليس هو هكذا ؟ هو من الذين يحكمون بالقوة ويهجو ويغيظ .. أكمل يا رجل ! ولم احتجوا لظلف العيش على لينه ، ولمره على حلوه ، ولم لم يستحيوا من رفض الطيبات فى رحالهم ، مع استهتارهم بها فى رحال غيرهم ، ولم تتابعوا فى البخل ، ولم اختاروا ما يوجب ذلك الاسم مع أنفتهم من ذلك الاسم ، ولم رغبوا فى الكسب مع زهدهم فى الانفاق ، ولم عملوا فى الغنى عمل الخائف من زوال الغنى ، ولم يفعلوا فى الغنى عمل الراجى لدوام الغنى ، ولم وفروا نصيب الخوف وبخسوا نصيب الرجاء ، مع

طول السلامة وشمول العافية ، والمعافى أكثر من المبتلى ، وليست الفوائد أقل من الحوائج . بل كيف يدعو الى السعادة من خص نفســه بالشقوة ، فكيف ينتحل نصيحة العــامة من بدأ يغش الخاصة ؟

لنتمهل يا أبا يحيى ، فقـــد توردنا العجلة موارد الهلاك .. لا تتحدث ، دعنى أفكر .. اكتب الآن :

ــــ ولم احتجوا مع شدة عقولهم لما أجمعت الأمة على تقبيحه ، ولم فخروا مع اتساع معرفتهم بما أطبقوا على تهجينه ، وكيف يفطن عند الاعتدال له ويتغلغل عند الاحتجاج عنه الى الغايات البعيدة والمعانى اللطيفة ، ولا يفطن لظــاهر قبحه وشناعة اسمه وخمول ذكره وسوء أثره على أهله ؟

ان هذا يرضينى يا أبا يحيى ، وقد أثير به من أثير ، ولكن هل تطول الحياة أكثر من هذا ؟ اكتب يا حبيبى :

ــــ وكيف وهو الذى يجمع له بين الكد وثقل المرزئة وبين السهر وخشونة المضجع ، وبين طول الاغتراب وطول قلة الانتفاع ، ومع علمه بأن وارثه أعدى له من عدوه وأنه أحق بما له من وليه؟ أو ليس هو أظهر الجهل والغباوة وانتحل الغفلة والحماقة ثم احتج لذلك بالمعانى الشداد وبالألفاظ الحسان وجودة الاختصــار ، وبتقريب المعنى وبسهولة المخرج واصابة الموضع ، فكان ما ظهر من معانيه وبيانه مكذبا لما ظهر من جهله ونقصانه ؟ ولم جاز أن يبصر بعقله البعيد الغامض ، ويغبى عن القريب الجليل ؟

ونهض الجاحظ فألقى نظرة على الصفحـة ، ونصح بالأناة وتجـويد الخط ، ثم عاد فجلس ناشـطا الى الاملاء . فذكر أن الوزير طلب منه أن يبين له ما الشيء الذى خبل عقولهم وأفسد أذهانهم ، كما أراد أن يسمع شيئا عن « علة خباب فى تقى الغيرة » و « علة الجهجـاه فى تحسين الكذب » و « مذهب صحصح فى النسيان » ولولا أنك تجد هذه الأبواب وأكثر منها مصورة فى كتابى الذى سميته كتاب المسائل لأتيت على كثير منه فى هـذا الكتاب ، فأما ما سألت من احتجـاج الأشحاء ونوادر أحاديث البخـلاء فسأوجدك ذلك فى قصصهم ان شـاء الله مفرقا وفى احتجاجاتهم مجملا ، فهو أجمع لهذا الباب من وصف ماعنـدى دون ما انتهى الى من أخبارهم على وجههـا ، وعلى أن الكتاب يصير أقصر ويصير العار فيه أقل .

وسكت مليا ، ثم استطرد :

ـ ونبتدىء برسـالة سهل بن هارون ، ثم بطـرف أهل خراسان لاكثار الناس فى أهل خراسان ، ولك فى الكتاب ثلاثة أشياء : تبين حجة طريفة أو تعرف حيلة لطيفة أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت فى ضحك منه اذا شئت وفى لهو اذا مللت الجد .

ان ابن الزيات صارم دائما ، وهو من أجل ذلك فى حاجة الى أن يخفف عنـه بالضحك . واذا كان من حقه أن ينقـد الكتاب ـ وهو لا يستر عنه عيبه ـ فليس له أى حق فى انتقاصه « ولولا

أنك سألتنى هذا الكتاب لما تكلفته ولما وضعت كلامى موضع الضيم والنقمة ، فان كانت لائمــة أو عجز فعليك وان كان عذر فلى دونك » .

١٠ ـ على حافة الهاوية

عندما دخل الجاحظ سامرا عرف أن الواثق مات ، وهرع الى دار ابن الزيات مسلما مستسلما فوجده مشغولا فى اختيـار من يخلف الامام الراحل . وعلم أنه يريد أن يبايع الناس لابنه محمد، وفعلا طلب الدراعة السوداء والقلنسوة له ، ولكن ابن أبى دؤاد أصر على أن يلى الخلافة أخوه جعفر المتوكل .

كان ذلك يوم الأربعاء لست بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، وشــهد الجاحظ بعينيه كيف أحضر المتوكل ليقوم اليه أحمـد بن أبى دؤاد فى آل عباس ، ويلبسه الطويلة ويعممه ثم يقبله بين عينيه ، ويقول وابن الزيات يتميز غيظا :

ــ السلام عليك يا أمير المؤمنين .

وتطلع نحوه المتوكل بسحنته السـمراء وعينيـه الكبيرتين ، وقال :

ــ وعليك وعلى المسلمين السلام .

وفى الطريق الى الدار قال ابن الزيات للجاحظ :

ــ أتدرى لماذا استوزرنى أمير المؤمنين ؟

أجاب :

ـــ ومن غيرك يصلح للوزارة ؟

قال :

ـــ ابراهيم بن العباس والجرجرائى وابن خاقان وايتاخ ، ولكن أتدرى لماذا اختارنى ؟

فهز الجاحظ رأسه نفيا ، فقال ابن الزيات :

ـــ ليوقع بى بعد اذ يبين للناس أنى أخطأت وهو خليفة ، وبينى وبينه وهو أمير من أسباب القطيعة ما يكفى لقتل أمة ، ولكن دعنا نعش يومنا يا أبا عثمان ولنقرأ كتابك .

وكانت الأيام التالية حزينة ، وان يكن الوزير لم يخف فرحه بالكتاب ، وبعد أربعين يوما دخل ايتاخ على ابن الزيات فى داره ـــ وكان معه الجاحظ يذاكره الروايات ـــ ليقول ان الخليفة بعث فى طلبه ، ولم يمض الا قليل بعد خروجهما حتى عاد ايتاخ فى نفر من الشرط وكبسوا الدار ونهبوها ، وساقوا أمامهم من فيها من غلمان وجوار ودواب ، وقد فر الجاحظ قافزا من فوق سور القصر الى بيته المجاور وهو يصرخ ويده فوق ساقه :

ـــ انها النهاية والله !

وقد أنفق فى بيته أياما مستخفيا علم خلالها أن قاضى القضاة ابن أبى دؤاد هو الذى حرض على ابن الزيات . وطالب بتعذيبه متهما اياه بالكفر وعدم القول بخلق القرآن وعطفه على ابن حنبل وصحبه ، فأدخل التنور الذى صنعه هو لخصومه ، وكان عندما يطلب الرحمة يقول الموكل بتعذيبه :

ـــ الرحمة خور فى الطبيعة أيها الوزير !

وكان محمد بن الفضل الجرجرائى قد ولى الوزارة ، فتعقب أصحاب ابن الزيات بعد موته ، ومن ورائه ابن أبى دؤاد يشجعه ويدله عليهم واحدا واحدا . فما كان من الجاحظ الا أن خرج من مخبئه قاصدا الى البصرة ، ولكن قبض عليه ، وأدخل على أحمد ابن أبى دؤاد مقيدا بقيود ثقيلة . فرآه فى جمع من أصدقائه تبين فيهم ابنه أبا الوليد محمدا ، واسحاق الموصلى ، وأبا العيناء ، ومحمد بن منصور ، وكانوا يضحكون . ولم يكد يلق بالتحية فى صوت واهن راعش حتى سئل :

ـــ ولم هربت ؟

فأجاب :

ـــ خفت أن أكون ثانى اثنين اذ هما فى التنور :

وقال قاضى القضاة :

ـــ وما علمتك الا متناسيا للنعمة ، كفورا للصنيعة ، معددا للمساوىء !

قال الجاحظ :

ـــ قد تصلحنى الأيام يا أبا عبد الله .

فقال :

ـــ والله لا تصلح منك ؛ لفساد طويتك ، ورداءة داخلتك ، وسوء اختيارك .

قال الجاحظ ، وقد بدأ يتماسك :

ـــ خفض عليك أيدك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أسيء وتحسن أحسن عنك من أن أحسن فتسيء ، وأن تعفــو عنى فى حال قدرتك أجمــل من الانتقام منى .

قال ابن أبى دؤاد :

ـــ قبحك الله ، ما علمتــك الا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت لسانك أمام قلبك ، ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر ، ما تأويل هذه الآية « وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد » ؟

قال :

ـــ تلاوتها تأويلها أعز الله القاضى .

فتفكر ابن أبى دؤاد ساعة ثم قال :

ـــ جيئوا بحداد .

فصرخ الجاحظ :

ـــ أعز الله القاضى ليفك عنى أو ليزيدنى ؟

فقال :

ـــ بل ليفك عنك .

وتنفس الجاحظ الصعداء ، فلما جاء الحداد وبدأ عمله غمزه اسحاق الموصلى أن يعنف بساقه ، ويطيل أمره قليلا ، ولكن آلام

القيد ــ ولا سيما على ساقه التى أوجعتــه يوم قفز سور ابن الزيات ــ كانت فادحة ، فما أسرع ما رفع كفه ولطم وجهــه ، وهو يقول :

ــ اعمل عمل شهر فى يوم ، وعمل يوم فى ســاعة . وعمل ساعة فى لحظة ، فان الضرر على ساقى وليس بجذع ولا ساجة .

فضحك أهل المجلس ، بينما التفت القاضى الى ابن منصور قائلا :

ــ أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه .

قال الجاحظ وهو يتحامل على نفسه واقفا :

ــ كنت أعلم أنك لن تأخذ الصديق يا أبا عبد الله !

وقال ابن أبى دؤاد لغلامه :

ــ صر به الى الحمام ، وأزل عنه الأذى ، واحمل اليه تخت ثياب وطويلة وخفا .

فلبس ذلك ، ثم رجع فتصدر المجلس ، وهنا قال القــاضى بمرح :

ــ هات الآن حديثك يا أبا عثمان .

قال الجاحظ :

ــ ان كان لابد فاجعله ايجابا على بشكرك ودعنى أبسط لسانى بتقريظك بكتاب حررته لابنك أبى الوليد قبل الغمــة ، وحفظته حتى يقضى الله أمره .

قال ابن أبى دؤاد :

— فيم يا حبيبى ؟

قال :

— فى الفتيا !

قال :

— فقد كنت تراجعه اذن ؟

أجاب :

— بل أراجع اختلاف الناس فى الأصول التى عليها اختلفت الفروع وتضادت الأحكام .

١١ ـ جائزتان

هذه الغبطة لم يطل أمدها ، بل لعلها لم تجاوز ذلك المجلس قط . وبدا الجاحظ بعد ذلك كئيبا متهافت الأطراف ثقيل احدى الساقين متخاذل النفس حتى كأنه ممرور محترق أو ممرور ملتهب ، الا أنه لم يعف نفسه من الكتابة . وبلغ من اصراره على البقاء أن راح يتندر بالأطباء الذين كانوا يعودونه — وعلى رأسهم يحيى ابن ماسويه وسلمويه — ويصفون له الدواء ، وقال لابن أخته يموت بن المزرع وهو يدلك ساقه :

— قتلوا المأمون بدوائهم مع أنه بشم من الرطب ، ولما اعتل الواثق علة الموت داووه على أنه يعيش من يومه خمسين عاما ، فهلك بعد عشرة أيام !

وبعد أيام خرج بكتابه « نقض الطب » زلزل به العلاقة بينه وبين أطباء العصر كله . ووافق ذلك اعتلال قاضى القضاة ، وكان كتب له يسترضيه مرات ، ويذكره بأن من عاقب فقد أخذ حظه ، ولكن الأجر فى الآخرة وطيب الذكر فى الدنيا على قدر احتمال العفو .

هى نفس المرء على أى حال ، يغريها الجاه ويبعدها عن الأصفياء . تحسب أن التواضع اذا كان من التلاد عند فئة فهو مستطرف منها ، وأرجو يا أبا عبد الله الا أن تكون كمثل عيسى ابن مريم عندما قيل له « ما رأيت كاليوم كلما أسمعوك شرا أسمعتهم خيرا » فقال « كل امرىء ينفق مما عنده ، وليس فى أوعيتكم الا الخير والرحمة » .

ولماذا تزور عنى وكنت صفيك وأنا صديق ابنك ؟

ألأنى على ما ترى من ضعف البنية وتيبس النفس ؟ لكن من فى مجالسك يفضلنى حديثا ويسبقنى فكرا .. خذ هذا شعرا ، وان لم أكن يوما شاعرا :

لا ترانى وان تطاولت عمدا … بين صفيهم وأنت تسير

كلهم فاضل علىّ بمال … ولسانى يزينه التحبير

فاذا ضمنا الحديث وبيت … فكأنى على الجميع أمير

ولكن الفالج دهم قاضى القضاة فكان مبررا كافيا لكثير مما جاء فى « كتاب نقض الطب » . ولم يتوجس الجاحظ طويلا لأن المتوكل

أسند كل ما كان يتولاه للدولة من قضاء القضاة وولاية المظالم الى ابنه أبى الوليد محمد . حدث هذا فى جمادى الآخرة من سنة ٢٣٣ وفى الأيام الأولى من رجب استدعاه أبو الوليد وصحبه الى المتوكل ليقوم بتأديب ابنه محمد المنتصر .

وكانت مقابلة لا ينساها ، فلقد استبشع الخليفة منظره — فهم الجاحظ ذلك تماما — وان يكن راح يحمل على الشيخوخة ، ويقول :

— لقد ضجرت من المشايخ ، وأريد أحداثا يعملون لى .

وأمر وصيفا التركى فصرف له عشرة آلاف درهم أفرحته بقدر ما تألم ، وفى الطريق الى داره لقى محمد بن ابراهيم المصعبى ، وهو يريد الانصراف الى بغداد فعرض عليه الخروج معه والانحدار فى حراقته .

وكان من العبث أن يرفض ، فضلا عن أنه كان يحس أن سامرا لم تعد مناسبة له تماما . فركب فى الحراقة ، حتى اذا انتهت به الى فم نهر القاطول نصب المصعبى ستارة ، وهو يقول :

— لنخفف عنك الآن يا أبا عثمان .

وأمر بالغناء فاندفعت عوادة تقول :

كل يوم قطيعة وعتاب ينقضى دهرنا ونحن غضاب
ليت شعرى أنى خصصت بهذا دون ذا الخلق أم كذا الأحباب

وسكتت ، فأمر الطنبورية فغنت :

وارحمتا للعاشـــقينا ما ان أرى لهم معينـــا
كم يهجرون ويصرمو ن ويقطعون فيصبرونا

فقالت لها العوادة :

ـــ فيصنعون ماذا ؟

أجابت :

ـــ هكذا يصنعون !

وضربت بيدها الى الستارة فهتكتها وبرزت كأنها فلقة قمر ، وما كان منها الا أن ألقت نفسها فى الماء . وعلى رأس محمد بن ابراهيم غلام وسيم بيده مذبة ، فأتى الموضع الذى تضطرب فيه الجارية ، وأنشد :

أنت التى غـــرقتنى بعـــد القضا لو تعلمينا

واندفع فى أثرها ، فأدار الملاح الحراقة فاذا هما معتنقان قليلا ، ثم غاصا بعد ذلك الى الأبد فارتاع الجميع . وكان المصعبى أشد القوم جزعا حتى ان الجاحظ نسى أشجانه على الشابين فى غمرة حزنه ، فلما قال له :

ـــ يا عمـــرو ، لتحدثنى حديثا يسلينى عن فعـــل هذين والا ألحقتك بهما !

لم يجد كبير عناء فى التماس العذر له . وحضره حديث يزيد ابن عبد الملك وقد قعد للمظالم يوما وعرضت عليه الرقاع ، فمرت

به رقعة فيها : ان رأى أمير المؤمنين أن يخرج الىّ جاريته «صباح» حتى تغنيني ثلاثة أصوات فعل . فاغتاظ يزيد من ذلك ، وأمر من يخرج اليه ويأتيه برأسه . ثم أتبع الرسول رسولا آخر يأمره أن يدخل اليه الرجل ، فأدخله ، فلما وقف بين يديه قال له :

— ما الذى حملك على ما صنعت ؟

قال :

— الثقة بحلمك والاتكال على عفوك .

فأمره بالجلوس حتى لم يبق أحد من بنى أمية الا خرج ، ثم أمر فأخرجت الجارية ومعها عودها فقال لها الفتى :

— غنّ :

أفاطم مهلا بعض هـــذا التدلل

وان كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

فغنته ، فقال له يزيد :

— قل !

فقال الفتى لصباح :

— غنّ :

تألق البرق نجــديا فقلت له يا أيها البرق انى عنك مشغول

فغنته ، فقال له يزيد :

— قل !

فقال الفتى :

— يا مولاى تأمر لى برطل شراب .

فأمر له بما طلب ، فما استتم شربه حتى وثب قائما ، وصعد على أعلى قبة ليزيد ورمى بنفسه فمات ، فقال يزيد :

— انا لله وانا اليه راجعون ، أتراه الأحمق الجاهل ظن أنى أخرج اليه جاريتى وأردها الى ملكى ؟ يا غلمان خذوها بيدها واحملوها الى أهله ان كان له أهل ، والا فبيعوها وتصدقوا بثمنها .

فانطلقوا بها الى أهله ، فلما توسطت الدار نظرت فرأت فى الوسط حفيرة أعدت للمطر ، فجذبت نفسها من أيديهم وهى تنشد :

من مات عشقا فليمت هكذا لا خـــير فى عشق بلا موت

وألقت بنفسها فى الحفرة على رأسها فماتت !

ابك أيها الأمير فأنا أزعم أن البكاء صالح للطبائع ، ومحمود المغبة اذا وافق الموضع ولم يجاوز المقدار ، ولم يعدل عن الجهة .

ابك ، فالبكاء دليل على الرقة والبعد من القسوة ، وربما عُدَّ من الوفاء ، وشدة الوجد على الأولياء .

ابك ، فالبكاء من أعظم ما تقرب به العابدون واسترحم به الخائفون ..

لقد كتبت ذلك لو كنت تقرأ ، وكتبت أيضا : أن بعض الحكماء

قال لرجل اشتد جزعه من بكاء صبى له « لا تجزع فانه أفتح لجرمه وأصح لبصره » وضرب عامر بن قيس بيده على عينه ، فقال « جامدة شاخصة لا تندى ! » .

ونهض محمد بن ابراهيم وقد خفف عنه ، وقال :

ـــ ما كان أعظم البلية يا أبا عثمان ، لكن ما أسرع ما سريت عنى ! ووالله لولا أن فينا حفاظا على الود لكان من أمرنا ما لا يجوز ، وعلى أى حال لك جائزتنا .

ووصل الجاحظ الى دار السلام بجائزتين .. احداهما من أمير المؤمنين ، والأخرى من أحد كبار الأمراء المصعبيين !

١٢ ـ حاجة الأمة والجاحظية

ما تعاقب بعد ذلك من سنين أثبت للجاحظ أن أبا الوليد لم يستطع كأبيه أن يمسك أمير المؤمنين للاعتزال ، وقد بدأ الأمر بتقصى المتوكل أحوال ابن حنبل وبالسكوت حتى اشتداد سواعد الجماعة من جديد . وقابل الجاحظ ذلك بالقعود فى المسجد لمراجعة أصول المعتزلة ، واستذكار كتب ابراهيم وابن عطاء والعلاف ، مع بسط آراء ثمامة حتى شملت جميع أمور المعاش . ومن ناحية أخرى نادى بضرورة التجاوب مع السلطان ، بعد أن كان من رأيه أن السلطان سوق يجلب اليها كل شىء لينفق فيها ، والحقيقة أنه لا ينفق فيها الا العلم والبيان عنه .

وقد اعتاد أن يبعث لأبى الوليد بالكتب ، وفى المقابل كان هذا

يمده بحاجته الى المال . وفى احدى رسائله اليه ذكر له أن الصراع اشتد بين محدّثى البصرة وأصحاب الرأى من أهل الكوفة ، تماما كما اشتد بين أهل السنة وأهل الاعتزال ، ثم وعد أباه فى رسالة قدّم بها كتاب الفتيا اليه ـ وكان تحدث عنه من قبل ـ بأنه يزمع اصدار عدة كتب « ليس يمنعنى من أن أهديها اليك معا الا ما أعرف من كثرة شغلك ، وكثرة ما يلزمك من التدبر فى ليلك ونهارك » .

لكن اذا كانت هذه الكتب مما ليس « من باب الطفرة والمداخلة ولا من باب الجوهر والعرض ، بل هى كلها من الكتاب والسنة وبجميع الأمة اليها أعظم الحاجة » فقد كتب لغيره عن« الاستطاعة وخلق الأفعال » و « الناشيء والمتلاشى » و « أحدوثة العالم » وفى « الرد على من زعم أن الانسان جزء لا يتجزأ » . والكتاب الأخير يبين تماما أنه فارق أستاذه وصديقه ، وتفرد باتجاه أطلق عليه أصحابه وخصومه معا « الجاحظية » كما يبين أنه يذهب الى أشياء قال بها ثمامة فى أن « لا فعل للعبادة الا الارادة وأن سائر الأفعال تنسب الى العباد ، على معنى أنها وقعت منهم طباعا ، وأنها وجبت بارادتهم » [٣٥] .

وأول الكتب [٣٦] « كتاب نظم القرآن » يحتج فيه لنظم كتاب الله وغريب تأليفه وبديع تركيبه ، ويرد فيه على النظام بصفة خاصة عندما يجعل الاعجاز « الصرفة » فقد تصح ، ولكن ليس على طول الخط ، لأن القرآن فى الواقع معجز فى نفسه .

وثانى الكتب « كتاب آى القرآن » يعرف فيه فصل ما بين الايجاز والحذف وبين الزوائد والفضول والاستعارات .

وثالثها « كتاب مسائل القرآن » جعل موضوعه أهم القضايا التى ناقشها كتاب الله بقوله « يسألونك عن .. » .

وأما أبو الوليد فقد كتب له كثيرا ، ولكن أشهر كتبه اليه « رسالة المعاش فى الأدب وتدبر الناس ومعاملاتهم »[٣٧] أراد فيها أن ينبهه الى دوره فى تنظيم حاجة الأمة ، بعد أن أصبح رجلا فى قمة رجالاتها . فهو مهما يكن لابد أنِ يبصر ، وهو اذا أراد أن يكون حكيما ، فمن الضرورى أن يحسن الارتياد لموضع البغية .

وانى عرفتك ـــ أكرمك الله ـــ فى أيام الحداثة وحيث سلطان اللهو أغلب على نظرائك وسكر الشباب المتحيف للدين مستول على لداتك ، فاختبرت أنت وهم ففقتهم ببسطة المقدرة وحميا الحداثة وطول الجدة ، مع ما تقدمتهم فيه من الوسامة فى الصورة والجمال فى الهيئة . وهذه كلها أسباب توجب الانقياد للهوى ، ولجج من المهالك لا يسلم منها الا منقطع القرين فى صحة الفطرة وكمال العقل .

لكن .. كل هذا واضح ، والوقوف عنده ليس أكثر من ازجاء الشكر ، ومن لم يشكر للناس لم يشكر لله .

« فرأيت أن أجمع لك كتابا من الأدب جامعا لعلم كثير من المعاد والمعاش أصف لك فيه علل الأشياء ، وأخبرك بأسبابها ،

وما اتفقت عليه محاسن الأمم ، وعلمت أن ذلك من أعظم ما أبرك به ، وأرجح ما أتقرّب به اليك ، وكان الذى حدانى على ذلك ما رأيت الله قسم لك من الفهم والعقل ، وركّب فيك من الطبع الكريم » .

وهكذا يمضى فيحدّثه عن أن العقل المطبوع لا يبلغ غاية الكمال الا بمعاونة العقل المكتسب ، والبرايا كلهم على ذلك النحو ، ومن ثم فليأخذ فى وصيته . فليخف الله ولا يغتر به ، وليجعل العدل والنصفة فى الثواب والعقاب حاكما بينه وبين اخوانه ، وعليه ألا يفرط فى الكبر لأنه يدعو الى مقت الخاصة ، كما عليه ألا يفرط فى المؤانسة والانقباض والحذر والمضرة والمنفعة ، لأن الافراط فى أى منها ينتهى الى ما لا تحمد عقباه .

« واعلم أنك ستصحب من الناس أجناسا متفرقة حالاتهم متفاوتة منازلهم ، وكلهم بك اليه حاجة ، وكل طائفة تسد عنك كثيرا من المنافع ، لا يقوم بها من فوقها ، ولعلهم مجتمعون على نصيحتك والشفقة عليك » .

لكن احذر يحيى بن أكثم . انه يوغر صدر الخليفة عليك وعلى ابنك كما أوغر هذا صدره على ابن الزيات ، ولا تخلينه من عنايتك على أن تعلم أنه سيمر بك فى معاملاته حالات تحتاج فيها الى مداراته ، والذى تعامل به الصديق هو ضد ما تعامل به العدو « فالصديق وجه معاملته المسالمة والعدو وجه معاملته المداراة والموارية ، وهما ضدان يتنافيان يفسد هذا ما أصلح هذا ، وكلما

نقصت من أحد البابين زاد فى صاحبه ان قليل فقليل ، وان كثير فكثير » .

يستطيع ابن أكثم أن يدفع بنجم الاعتزال الى الأفـول ، فلا يعود لواؤنا يخفق فى سماء العلم ، والمقادير ربما جرت بخلاف ما تقدر الحكماء فينال بها الجاهل فى نفسه المختلط فى تدبيره ما لا ينال الحازم الأريب الحذر « فلا يدعونك ما ترى من ذلك الى التضييع ، والاتكال على مثل تلك الحال ، فان الحكماء قد أجمعت أن من أخذ بالحزم وقدّم الحذر فجاءت المقادير بخلاف ما قدر كان عندهم أحمد رأيا وأوجب عذرا ممن عمل بالتفريط ، وان اتفقت له الأمور على ما أراد » .

ومن يدرى ، فلعل غضب أمير المؤمنين على بعض حاشيته كايتاخ ـــ الذى كان اليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالى والبريد والحجامة ـــ بعض ما يؤذن بجد لا يطمأن فيه ولا يقر .

وكان مقتل ايتاخ فى عام ٢٣٥ بعد أن نظم المتوكل العهـد لأولاده الثلاثة وثار الترك ، وقيل ان ابن أكثم راح يقول له : « كلهم لا يقول بخلق القرآن وهم عصبتك ومعتمدك عليهم فأرضهم » .

وأرض أنت أصدقاءك يا أبا الوليد واستكثر منهم « فانهم جند معدون لك ينشرون محاسنك ويحاجون عنك ، ولا يحملنك استطراف صديق ثان على ملالة للصديق الأول ، فان ذلك سبيل

أهل الجهالة » واعلم أن الحكماء لم تذم شيئا مثل ما ذمت أربع خلال هى : الكذب ، والغضب ، والجزع عند المصيبة ، والحسد « وبقدر ما ذمت الحكماء هذه الأخلاق الأربعة فكذلك حمدت أضدادها » .

واعلم أنك موسوم بسيما من قارنت وأن كثرة العتاب سبب للقطيعة وأن اطراحه كله دليل على قلة الاكتراث لأمر الصديق ، واقتصد فى مزاحك ولا تنشر محاسنك بنفسك ، « وارتد لنعمك مغرسا تنمو فيه فروعها ، واعلم أن استصغارك اياها يكبرها عند ذوى العقول وسترها منك نشر بها عندهم » فانشرها بسترها وكبرها باستصغارها .

ولكنى أطلب أن أقول كلمتى وأصدق النصح ، وقد يرى بعض من يحسدنى على ما أنا فيه أنى أنافق ، فهل من النفاق أن أقول الكلمة الطيبة والكلمة الطيبة صدقة أيها القاضى العادل ؟

احذر الحذر كله الاغترار بثلاثة أمور ، فان من عطب بها كثير وتلافيها صعب شديد « أحدها أن لا تولى جسائم تصرفك وتقلد مهم أمورك ووثائق تدبيرك الا امرأ صلاحه موصول بصلاحك ، أو أن تأنس أن تغتر بمن تعلم أن بصلاحك فساده ، وبارتفاعك انحطاطه وبسلامتك عطبه ، فان من كان هكذا فأنت ملك بموته ، أو أن تجعل مالك كله فى عقدة واحدة أو حيز واحد أو وجه منفرد ان اجتاحته جائحة أو نابته نائبة بقيت حسيرا » .

على أنى أوصيك برياضة نفسك أنت حتى تذللها على كل

الأمور المحمودة التى عرضتها ؛ ومن ثم لابد أن تكون المساهلة فى أخلاقك أغلب عليك من المعاسرة ، والحلم أولى بك من العجلة ، والصبر الحاكم عليك دون الجزع ، والعفو أسبق اليك من المجازاة بالذنوب والمكافأة بالسوء .

« أسأل الله المبتدىء بكل نعمة ، والمتولى لكل احسان أن يصلى على محمد خيرته من خلقه ، وصفوته من بريته ، وأن يتم عليك نعمته ، ويشفع لك ما خولك من نعمته بالنعمة التى يؤمن معها الزوال فى جواره ومرافقة أنبيائه ، والسلام عليك ورحمة الله » .

١٣ ـ عاصفة

وفى العام نفسه ـــ أى عام ٢٣٥ ـــ فرض المتوكل على الذميين لبس الطيالسة العسلية ، وشد الزنانير . وركوب السروج بعد أن يعمل لها من المؤخرة كرتان ، كما أمر أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب . وكان هذا ايذانا بزيادة مشـــكلات الخليفة ومن يتصل به ، كما كان مجالا للجدل العنيف بين المسلمين والمسيحيين . وأسهم الجاحظ فى المعركة بكتاباته عن الاسلام ، وبخاصة بعد أن راح الباطنية ينتهزون الفرصة ، ويدلون بآرائهم التى تريد أن تهدم صروح الاعتزال .

وبعد أن كتب « خلق القرآن » رد على دعاة التشبيه فى كتاب لم يكد يفرغ منه حتى بعث برسالة لأبى الوليد يقول له فيها بعد المقدمة : « وقد كتبت ـــ مد الله فى عمرك ـــ فى الرد على المشبهة

كتابا لا يرتفع عنه الحاذق المستغنى ، ولا يرتفع عن الريض المبتدىء » .

ويبدو أنه أراد أن يستفتيه فيه ، لأنه بعد قليل يقول له : « فأنا أسألك — أكرمك الله — أن ترى هذا الكتاب وتقرأ ما خف عليك منه ، فان يصلح الكلام وكان كما وصفت ، وكما ضمنت حثثت على قراءته وعلى اتخاذه وعلى تخليده وعلى تدوينه » .

وهو ينافح عن المعتزلة بايراد الحجة والمنطق والمناظرة العقلية ، فيدحض بسهولة الباطنية المشبهة التى كان سندها الأول قوة العاطفة الدينية التى تلين قلوب العامة وتشدها اليها . وحرام — على أى حال — على كل متكلم عالم وفقيه مطاع وخطيب مفوه ان كان عنده من الأمر شيء الا أن يأتى أبا الوليد به ويذكره بما عنده ، قل أو كثر وصادف منه شغلا أو فراغا .

« على أننا لم ننطق الا بألسنتكم ولم نحتذ الا على مثالكم ، ولم نقو الا بما أعرتمونا من فضل قوتكم . وعلى أهل اللسن من الخطباء معاونتكم ومكاتفتكم » .

اننى جاد وتركت الهزل جانبا . فلعلها الشيخوخة ، ولعلها أحوال الدنيا ، ولعلها المسائل العويصة أثقلت علينا ، أو لعلها المشاكلة فى الصناعة التى ان كانت توجب الضغن من الحاسد تدفع المحسود الى الحرص واصطناع المشقة ابتغاء المثوبة . غير أنى اذا كنت دفعت بالكتاب اليك دون أبيك — وهو لا يزال

كبير الأثر — فلأنى أعرف أنك تجرى معه فى الأمور مجرى واحدا ، ولعل قائلا أن يقول : وكيف لم تذكر أمير المؤمنين والمعتصم برب العالمين الذى حقق الله به الدين وسدد به الثغور ؟ قلنا « ان عقل الرسول يدل على مرسله واعتدال القناة يدل على حذق المثقف ، ومديحك الوزير راجع الى من اختاره » .

على أن هذا لا يمنع من أن للمتوكل مغامز .. فمن فى حاشيته غير قاضى القضاة ووزيره الكاتب الرقيق المجدود عبيد الله ابن يحيى بن خاقان ؟ والبقية أصحاب مجون ومصطنعو نادرة .. لا على ما يحتشم أبو العيناء والجماز — قطبا القصر — لكن على ما يتبذل أبو حسان النملى وحمدون النديم والكتنجى ومانى الموسوس وأبو العبر الرقيع الذى كان من بيت الخلافة وأبو العنبس الصيمرى الذى شغل قضاء الصيمرة زمنا (٣٨) .

ولو كان الجاحظ فى مثل نشاط هؤلاء ، وقد اختلط بذوى الفضل والذكر الحسن من أمثال ابراهيم بن السندى وابراهيم بن العباس وابراهيم بن المدبر وأبى العباس المبرد — وقد أعلن هذا تلمذته للشيخ أبى عثمان — لبرز فى الهزل والمضاحك ، كما لم يظهر أحد ولتمسك به أصفياء المتوكل .. وصيف حاجبه وبغا الصغير وباغر التركى ورجاء الحضارى !

ومع ذلك فقد كان الجاحظ اذ ذاك فى أحسن أيامه رخاء ، وكان الوزير يغدق عليه ورتب له مرتبا مستديما كل شهر ، فى حين تولاه بالرعاية والسؤال عنه وذكره للمتوكل داعيا اياه لسامرا

من جديد الفتح بن خاقان مولى الخليفة ونديمه الأثير [٣٩] .
وكانت فتنة النصارى قد بلغت أقصاها ووعد الجاحظ بالكتابة فيها ، فلما صدر عن رسالته « فى صناعة القوّاد » قاصدا بها أمير المؤمنين [٤٠] بعث اليه الفتح يقول : « ان أمير المؤمنين يجدّ بك ، ويهش عند ذكرك ، ولولا عظمتك فى نفسه لعلمك ومعرفتك لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه . وقد كان ألقى الىّ من هذا عنوانه فزدتك فى نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك ، فاعرف لى هذه الحال واعقد هذه المنة على كتاب الرد على النصارى وافرغ منه وعجل به الىّ ، وكن من جدا به على نفسه وتنال مشاهرتك قد استطلقته لما مضى ، واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة ، وهذا مما لم تحتكم به نفسك ، وقد قرأت رسالتك فى بصيرة غنام ، ولولا أنى أزيد فى مخيلتك لعرفتك ما يعترينى عند قراءتها والسلام » .

والا يمكن الزعم أنه كان لأبى الوليد أو لأبيه فضل على الجاحظ فيما وصل اليه هذه الفترة ، فقد كان قاضى القضاة قد وقع فريسة لغضب الخليفة فأقصاه عن مناصبه سنة ٢٣٧ ، وحبسه هو واخوته فى ديوان الخراج ، وأمر بالتوكيل على ضياعه وضياع أبيه ، وأمر بهما فحدرا الى بغداد حيث مات أبو الوليد سنة ٢٣٩ ، ومات أبوه من بعده محسورا فى أوائل سنة ٢٤٠ .

وكان موت أبى الوليد نهاية للاعتزال فى القصر ، فقد تولى

يحيى بن أكثم قضاء القضاة ، وساعد الخليفة الذى كان يتسنن خفية — ومعه الفقهاء من أهل السنة الذين التف الحزب العربى فى المملكة ضدهم — على أن ينهى الناس عن الكلام فى خلق القرآن وأمرهم بالتسليم وبالتقليد ، وحرر ابن حنبل من كل ما فرض عليه من قيود قبل أن يموت سنة ٢٤١ .

انها عاصفة مدمرة ، وكان من الممكن أن تطيح بالجاحظ لولا مساندة الفتح ، وعبيد الله بن يحيى له ، ولولا خوضه فى الدفاع عن الدولة ضد الذميين [٤١] — الذين استمر اضطهادهم وحظر الحاقهم بالوظائف الحكومية — واشتداد شوكة الأتراك الذين حاول هو أن يؤلف بين قلوبهم لتسلم صدورهم فى رسالة بعث بها الى الفتح [٤٢] .

على أنها تركته وقد تحطم ، فقد ثقلت عليه علة ساقه ، ثم لزم داره مفلوجا مكثرا من الحديث عن الحسد والعداوة — وقد بعث لعبيد الله بن يحيى بن خاقان رسالة فى هذا الموضوع — ليقول بصراحة : انه أصبح يلقى من الناس الكراهية بوجهيها ، اذا كانت مستورة فهى الحسد واذا كانت سافرة فهى العداوة .

وفى سنة ٢٤٣ رجع الى البصرة لما نزح المتوكل الى دمشق هاربا — بعد أن لحظ فشل سياسة التعاون مع الفرس والترك — وفيها عاد ذهنه الى التوقد يكتب ، كما خطط لكتاب كبير كان فكر فى اهدائه لابن أبى دؤاد يوم ثار جدل بين النظام ومعبد حول ضروب معينة من الحيوان . ولكن الرسل لم تلبث أن جاءته بنبأ رجوع الخليفة الى سامرا ، بعد أن اكتشف مؤامرة لقتله ،

وكان فى صفه رجاء الحضارى . فبدأ من جديد يتطلع الى سامرا بخاصة ، بعد أن تمكن أبو الفرج نجاح بن سلمة من أن يقبض رزقه عنه ، وفعلا أعد العدة . وجعل فى مقدمة أعماله انجاز قصيدة يخاطب بها هذا الكاتب الذى كثر شامتوه وحساده ، وبعث بها فى رسالة حرص على أن يضمنها أسماء من كنيته « أبو عثمان » وفى القصيدة يقول : (٤٣)

أقام بدار الخفض راض بخفضه
وذو الحزم يسرى حين لا أحد يسرى
يظن الرضى شيئا يسيرا مهونا
ودون الرضى كأس أمرّ من الصبر
سواء على الأيام صاحب حنكة
وآخر كاب لا يريش ولا يبرى
خضعت لبعض القوم أرجو نواله
وقد كنت لا أعطى الدنية بالقسر
فلما رأيت المرء يبذل بشره
ويجعل حسن البشر واقية التبر
ربعت على ضلعى وراجعت منزلى
فصرت حليفا للدراسة والفكر
وشاورت اخوانى ، فقال حكيمهم
عليك الفتى المرى ذا الخلق الغمر
أعيذك بالرحمن من قول شامت :
أبو الفرج المأمول يزهد فى عمرو

١٤ ـ الرجل المريض

لم أعد سيد نفسي ولا أنا مستطيع أكثر مما يستطيعه غيري . لقد أدخلت على المتوكل فتهاتر الجلساء واستخفوا بي والخليفة يضحك ! وعندما دخل ابراهيم بن العباس نهض اليه الفتح ابن خاقان وسكت أصحاب الهزل ، أفلم يقل أمير المؤمنين : لا يهزأن أحد بين يدى حتى يقوم ابراهيم !

وعاد الى داره ثقيل الخطو واعتكف ، ولم يخرج الى الناس حتى أتم « كتاب الزرع والنخل » وأهداه الى ابراهيم بن العباس ، فبعث اليه بالحسن بن مخلد ــ وكان يخلفه على ديوان الضياع ــ وسلمه خمسة آلاف دينار ، وفى اليوم التالى زاره وقبله على رأسه وهو يقول :

ــ زه زه ، والله أحسنت على ما رأيت من أشياء لم تعجبني .

فتساءل الجاحظ :

ــ فى هذا الكتاب ؟

فأجاب :

ــ فيه وفى غيره .

فأطرق الجاحظ مفكرا منكرا ، فصاح ابراهيم :

ــ ان اليوم والله يوم سرور بك وبما تكتب فما هذا الغم ؟

قال الجاحظ :

ـــ والله ان الحق أولى بمثلى وأشبه ، انى لم أدفع الا بكل ما عندى فان قصرت فذلك عزمى .

فنهض ابراهيم وهو يقول :

ـــ بل أعلم أن وراءك لا يزال الكثير ، فهلم أبا عثمان !

وخرج ولم يعد ، لأنه مات . وأما الجاحظ فقد جلس يفكر ، وعبثا حاول ابن أخته يموت رده الى نفسه . على أنه عندما دخل عليه بعض صحبه وحدثوه بما عاد يثور حول نقاش النظام ومعبد بصدد الكلب والديك قال بحده :

ـــ لولا أنى شرعت فى كتاب عن البلدان لكتبت فى هـذا الموضوع كتابا ، ولكنى أتمه ان شاء الله .

قال بعضهم :

ـــ لقد أتى شيخا المعتزلة على كل شيء فيه ولم يعد لك ما تقول فيه .

فقال الجاحظ :

ـــ اذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح !

ثم لم تمنعه العلة من أن يمضى فيما اعتزمه ، حتى اذا دخل عليه رسول من عند المتوكل يستدعيه شوقا الى حديثه قال بأسف :

ـــ وما يصنع أمير المؤمنين بامرىء ليس بطائل ، ذى شق مائل ولعاب سائل .

ورفع يدا ثقيلة الى عينيه يمسح دموعا بدأت تنحدر ، واتجه أحدهم اليه يقول :

ـــ وما يقول الأطباء يا أبا عثمان ؟

أجاب :

ـــ ما قلته فى كتاب نقض الطب .

وضحك ، ثم قال لوراقه :

ـــ أتحفظ شعر عوف بن محلم الخزاعى ؟

قال الوراق :

ـــ عن أيش يا أبا عثمان ؟

قال الجاحظ :

ـــ عما أنا فيه من حال ما ترى فهو يقول :

ان الثمانين وبلغتهـــــا قد أحوجت سمعى الى ترجمان

وقد جزتها والله ووهن العظم منى ، واشتعل الرأس شيبا ، وما أحسب أن يكشف الابتلاء عن محمدة ، بعد أن قضت لى تجارب الحداثة بالتقدمة الا أن يشاء الله !

هكذا راح الرجل المريض يعيش ، متخوفا من انقضاء سنيه وانطفاء شمعته حينا ، ومشفقا حينا آخر على أن يقصر فيأخذه الكاشحون والشامتون . وما كانت زيارات المبرد وسائر صحبه

بالتى تملأ عليه فراغه ، بل على العكس طالما شكا قلة الأعوان وندرة العواد ، حتى كأنما الأيام أدبرت عنه الى الأبد .

لقد رفعه الجد وألقى به من بلد الى بلد ومن ولى الى ولى ، وأوقع فى حبائله ألوانا مختلفة من الرجال ، وجعل منه رجلا يخشاه الكثيرون ، ويحسده الكثيرون . فاذا هو على استعداد لأن يرمى فى كل مقصد ، ويزج به الى كل قضية ، ويطرح اطراح الابتلاء الشديد ليطفو فى نهاية الأمر فوق الأحداث .. وأما اليوم !

لا حيلة لى فى الأمر ، وتلك سنّة الله فى أرضه ، تفترق البرايا كلهم وتتفاوت بهم منازلهم لتكون العلل التى يوجب بعضها بعضا ، ففيم الشكوى وفيم البحث عن الشىء الذى يحتال لقلوبهم به حتى تستمال ، وحتى تؤنس بعد الوحشة ، وتسكن بعد النفار ؟

وعلى هذا المنوال تمضى حياته حتى يسمع ذات صباح من سنة سبع وأربعين ومائتين بقتل المتوكل والفتح بن خاقان بعد ليلة صاخبة شهدها البحترى الشاعر الكبير ، ووضع نهاية لها بسيفه باغر التركى ومعه عشرة من الأعوان الملثمين تبرق سيوفهم فى ضوء الشموع .

وقد أذاع كل من أوتامش وبغا الشرابى النبأ ، وأعلنا عزل الوزير عبيد الله بعد أن طلبا أن يبايع الناس لأبى جعفر محمد المنتصر بن المتوكل . وتم الأمر بسرعة ، وجاء أحمد بن الخصيب ـــ وكان بينه وبين الجاحظ قطيعة ـــ وزيرا فأقصاه عن القصر بقدر ما استطاع .

١٥ ـ السنوات التسع الأخيرة

لم يمكث المنتصر فى الحكم سوى ستة أشهر مات بعدها ، فخلفه المستعين أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم سنة ثمان وأربعين ومائتين ، وأسرع هذا فنكب أحمد بن الخصيب وقلد مكانه ابن يزداد فشجاع بن القاسم كاتب أوتامش ، وأطلق يد أوتامش هذا فى بيوت الأموال حتى استاء الجميع . وراح وصيف وبغا يتآمران ضده مع الجنود ، فلما قتل استفحل أمر باغر ، فقرر الرجلان قتله أيضا ، وقد أدرك هو ذلك ، وعلم أن الخليفة فى صفهما فجمع أعوانه وقال لهم :

ــ الزموا الدار حتى تقتل المستعين وبغا ووصيفا ونجىء بعلى ابن القاسم أو بابن الواثق فنعقده خليفة حتى يكون الأمر لنا كما هو لهذين اللذين قد استوليا على أمر الدنيا وبقينا نحن فى غير شىء !

وهرع المستعين الى وصيف وبغا وقال :

ــ ما طلبت اليكما أن تجعلانى خليفة وانما جعلتمانى وأصحابكما ثم تريدان أن تقتلانى .

ولما نجح حزب وصيف وبغا فى قتل باغر أسرعا ومعهما الخليفة الى بغداد يصحبهم جلة العمال والكتاب وجماعة بنى هاشم ، وعبثا حاول أتراك سامرا ارجاع المستعين . ومن هنا قرروا خلعه وتولية أبى عبد الله محمد بن المعتز بن المتوكل ، وبويع له بالفعل فى سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، وأرسل جيشه ــ وكان معظمه من المغاربة والفراعنة ــ الى بغداد فتم له فتحها .

على أن المعتز سرعان ما اختلف مع الأتراك ، لأنهم كرهوا ميله نحو المغاربة والفراعنة . ومما زاد الأمر تعقيدا خلو دور الأموال من المال ، حتى لقد اضطر المعتز الى أن يستقرض أمه قبيحة ـــ وكانت مثرية للغاية ـــ وترفض الأم ، فلا يكون نصيبه بأحسن من نصيب أبيه ، فيقتل عشية يوم الجمعة لليلة خلت من شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين .

وقبل ذلك بسبعة أشهر ـــ أى فى شهر المحرم ـــ مات الجاحظ وهو فى البصرة وقد أصيب بالنقرس علاوة على الشلل ، وكان يطلى نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته والنصف الآخر لو قرض بالمقاريض لما أحس به من خدره وشدة برده ، وقد زاره المبرد قبل موته فقال له :

ـــ كيف أنت ؟

فأجاب قائلا :

ـــ كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه ، وأشد من ذلك تقدم سنى :

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب

وزاره باسم المعتز كل من بختيشوع بن جبريل وسلمويه وابن ماسويه ، فأما بختيشوع فانه لما سمع قوله :

ـــ اصطلحت الأضداد على جسدى ، ان أكلت باردا أخذ برجلى وان أكلت حارا أخذ برأسى .

قال :

ـــ لا حول ولا قوة الا بالله !

فى حين انبرى ابن ماسويه يقول فى شماتة :

ـــ أتتحدث عن المضادة أيها العجوز ؟

وتململ الجاحظ . فقد تذكر أنه اجتمع بابن ماسويه على مائدة أحد الوزراء أو الكتاب الكبار ـــ فلم يعد يتذكر تماما ـــ وكان فى جملة ما قدم مضيرة بعد سمك فامتنع ابن ماسويه من الجمع بينهما ، فقال له :

ـــ أيها الشيخ لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضادا له ، فان كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له ، وان كان من طبع واحد فلنحسب أن قد أكلنا من أحدهما الى أن اكتفينا .

فقال ابن ماسويه :

ـــ والله ما لى خبرة بالكلام ولكن كل يا أبا عثمان وانظر ما يكون فى غد !

فأكل هو نصرة لدعواه فكان أن عجز عن تحريك قدمه ، وعزى ابن ماسويه ذلك الى مسألة الطبع وضده . ونسى هــذا المتطبب أن للسن حكمها ولقيد ابن أبى دؤاد فى ساق عليلة أثره الذى لا يمكن أن يغفل .

وأما ابن ماسويه فقد راح يستوضحه الحكاية التى ينسبها الى ثمامة فى « كتاب نقض الطب » ويقول فيها ان الأطباء زعموا أن الذباب اذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكن ، وأنه عندما

لسعه زنبور حكك على موضعه أكثر من عشرين ذبابة فما سكن ، ثم قال له :

ــ لولا أن أمير المؤمنين طالبنا بعيادتك لما قلت لك تطبب بهذا الدواء !

وأعطاه القنينة ومضى ، فدخل عليه فى أهل البصرة جماعة فسألوه عن حاله فأجاب :

عليل من مكانين   من الأسقام والدين

ووالله أنا فى العلل المتناقضة التى يتخوف من بعضها التلف !

واشتد جزع أهل البصرة ، وراح القاصى منهم والدانى يتذاكر فضله وعلمه ، ويحكى عن كتابين عظيمين أشار الى وجودهما فى مكتبته وهما « الحيوان » و « البيان والتبيين » . ثم أخذ الأعراب يتوافدون على داره حتى اذا كانت ليلة موته دخل عليه أحد وجوه البرامكة ــ صاغ ماله عشرة آلاف اهليلجة فى كل اهليلجة ثلاثة مثاقيل قبل أن يفد على البصرة ــ فحدثه عن « الحيوان » الذى كتبه ثم رجع اليه فزاد فيه ونقح ، وفى نهاية الزيارة تذاكر معه البرامكة ثم قال :

ــ لقد انجبر بهم خلق كثير فسقيا لهم ورعيا .

فدعا له البرمكى ثم قال :

ــ أسألك أن تنشدنى شيئا من شعرك .

فقال :

ــ والله ما أدرى ما أقول ولست بشاعر ، ولكن اليك هذين البيتين :

لئن قدمت قبلى رجال فطالما
مشيت على رسلى فكنت المقدما

ولكن هذا الدهر تأتى صروفه
فتبرم منقوضا وتنقض مبرما

وبعد ذلك قام ، فلما قارب الدهليز صاح الجاحظ قائلا :

ــ أرأيت مفلوجا ينفعه الأهليلج ؟

أجاب :

ــ لا والله !

فقال الجاحظ :

ــ فان الاهليلج الذي معك ينفعنى فابعث لى منه .

فتعجب البرمكى وقال « أفعل » ثم خرج يتساءل كيف وقف على خبره مع كتمانه اياه . ولما أرسل له مائة اهليلجة لم يقدر له أن يتسلمها ، فقد حدث أن تحامل على نفسه الى غرفة كتبه وما كاد يجلس وحواليه الأسفاط والرفوف والقماطير والدفاتر ، حتى انهالت الكتب فوقه دون أن يستطيع حراكا . فقضى عليه فى الحال ، فحوقل الناس وترحموا عليه ، وبكى المعتز فقال بعض صحبه :

ــ لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام النعماء .

وبكاه أبو العيناء بدمع غزير ، فسئل :

ــ ليت شعرى أى شيء كان الجاحظ يحسن ؟

فقال :

ــ ليت شعرى ، وأى شيء كان الجاحظ لا يحسن !

١٦ - كلمة يستغنى عنهـا

تلك السنوات التسع لا تعطينـــا شيئا كثيرا عن الجاحظ فى الحياة العامة ، فقد أقصى عن السياسة وكان دائما من كتابها فابتعد ، ولكن بالقدر الذى لا يجعله فى الظلام . فهو يراسل ابراهيم بن المدبر ويضع « كتاب آل ابراهيم بن المدبر فى المكاتبة » وهو يتصل بسليمان بن وهب وغيره من الكتاب والمستوزرين ويكتب « رسالة فى مدح الكتاب » بعد أن ذمهم ، وظل على علاقة طيبة بأبى الحسن عبيـــد الله بن يحيى بن خاقان . على أنه استدعى أكثر من مرة الى قصر الخلافة ، فكان يرفض مرة ويجيب أخرى ، وقد تمنى المعتز قبل مصرعه أن يكون أحد خلطائه .

وليس مناص من الاعتراف بأنه من العسير أن نصدق كيف وهو فى هذه الأحوال ـ وقد كان مريضا يخف عليه الفلج ويزيد ـ يظل حاضر الذهن متوقد الدهر ، فيحدث عواده وتلاميذه .. دون مزح ،لأنه كان قد انتهى الى حيث لا يكون الا تظرف أهل الفهم والى أن الشيخوخة ألزم لها وقار العلم .

على أنه لا ينى يشكو ، ومن ذا الذى يعيش مقيدا بالقلم ناظرا فى ثبت المراجع ثم لا يمل أو يكل ؟ فضلا عن المرض الذى لا شك كان يلقى عليه ظلالا من الأسى حزنا على ما فاته من اللذاذات والمتع .

اننا حريون أن نشعر بالدهش اذ نتبين فداحـة الثمن الذى أداه مقابل محاولاته لاتزانه العقلى مع سلوك فنى محدد ، وانه لثمن عملتـه الترسل والاستطراد واصـطناع الأسلوب العلمى الجدلى مبتعدا عن الأسلوب الغنائى .. أسلوب الرجل الشهوان

الذى أحب الحياة فى كأس نبيذ (٤٤) وأكلة شهية (٤٥) وبدن لدن، وأغنية حلوة (٤٦) .

هذا ما نراه فى كتابيه « الحيوان » و « البيان والتبيين » .

ويجب أولا أن لا نصدق ما يروى أنه أهدى الأول لابن الزيات فأعطى خمسة آلاف دينار ، وخص بالثانى ابن أبى دؤاد فظفر منه بمثل ما ظفر به من ابن الزيات (٤٧) فهذه الرواية التى يرويها ياقوت الحموى على لسان الجاحظ لم تظهر الا فى كتابه منقولة عن ميمون بن هارون ، أحد القلة التى عقد بهم الجاحظ صلة فى أخريات أيامه ، وظهورها على هذا النحو يشكك فيها . فضلا عن أن الأصل فى موضوع الحيوان ــ ولم يكن فى حدس الجاحظ أن يكبر باستطراداته التى غلب عليها الأدب ولاحظها وهو يملى ــ كان مما يشغل المتكلمين أو المعتزلة بوجه خاص ، والملاحظ بصفة عامة أن ابن الزيات كان كمويس بن عمران صديقا للمعتزلة أكثر منه مفكرا منهم . والدليل على ذلك أنه لم يشترك فى محاكمات ابن حنبل التى برز فيها ابن أبى دؤاد بصورة مزرية آثمة ؛ بل يمكن أن نزعم أن « البيان والتبيين » أكثر موافقة لمزاج ابن الزيات الفنى لأن الأدب أغلب عليه ، أو هو من المجالات التى يميل اليها ذلك الوزير الأديب الشاعر .

فهل معنى ذلك أن ابن أبى دؤاد هو صاحب « الحيوان » أو هو من أهدى اليه الكتاب فمنح الجاحظ جائزته الكبيرة ؟ .

الاجابة لا لشىء بسيط هو أن « تاريخ » الحيوان بما أثبت فيه من روايات عن متعاصرين محدثين (٤٨) يجعل لانتهائه زمنا يقع بعد موت قاضى القضاة ، الا أن يكون الجاحظ شرع فيه ولم يتمه الا بعد انتهاء حياة ابن أبى دؤاد .. الأب والابن على حد سواء ! .

اننا ننظر الى ما قبل والى ما بعد ، ونحاول أن نتحقق فلا نستطيع . فقط نعرف أن الجاحظ كتب الحيوان بعد الجدل الذى نشب بين النظام ومعبد وكتبه أيضا وهو مريض أو وهو شديد المرض ــ أى أن الكتاب صادف احدى السنوات التسع الأخيرة ــ حتى ليقول : « أول ذلك العلة الشديدة ، والثانية قلة الأعوان ، والثالثة طول الكتاب ، والرابعة أنى لو تكلفت كتابا فى طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ثم كان من كتب العرض والجوهر والصفرة والتوليد والمداخلة والفرائز والنحاس لكان أسهل وأقصر بابا وأسرع فراغا . لأنى كنت لا أفزع فيه الى تلقط الأشعار ، وتتبع الأمثال ، واستخراج الآى من القرآن والحجج من الرواية ، مع تفرق هذه الأمور فى الكتب » (٤٩) .

واذا مضينا مع النص نرى الجاحظ يخاطب من قصده بالكتاب بقوله « فان وجدت فيه خللا من اضطراب لفظ ومن سوء تأليف ، أو من تقطيع نظام ومن وقوع الشىء فى غير موضعه ، فلا تنكره بعد أن صورت عندك حالى التى ابتدأت عليها كتابى » .

أما من هو فلا دليل عليه ، ومن ثم لا يبعد أن يكون هذا ــ أى مخاطبة شخص ما فى الكتابة ــ منحى فنيا استهدف به الجاحظ تقريب القارىء اليه واستهواءه اذ يدغدغ عواطفه ويربت عليها .

واذا انتقلنا الى «البيان والتبيين» وهو يلى «كتاب الحيوان» تاريخيا اذ يقول الجاحظ فيه « وهذا الباب يقع فى كتاب الانسان من كتاب الحيوان ، وفى فصل ما بين الذكر والأنثى ، وليس هذا الباب مما يدخل فى البيان والتبيين ولكن قد يجرى السبب فيجرى معه بقدر ما يكون تنشيطا لقارىء الكتاب » (٥٠) نجد الشىء نفسه ، أى أننا نرى من يحرص الجاحظ على مخاطبته « وليس حفظك الله مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة وسقطات الخطل يوم اطالة الخطبة بأعظم مما يحدث عن العى من اختلال

الحجـــة ... ثم أعلم أبقاك الله أن صاحب التشديق والتقعير والتعقيب من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف وشنعة التزيد أعذر من عى من يتكلف الخطابة » (٥١) .

وفى هذه الحال لا نجد أكثر مما قلناه فى « الحيوان » على أن نوضح أن فى الكتاب موقفا عربيا خالصا يضيق دائرة البحث عن المهدى اليه اذا كان شخصا بعينه . اذ يجعله عربيا صليبة ، فهو يقول فى أحد أجزاء الكتاب « أردنا أبقاك الله أن نبتدىء هذا الجزء من البيـان والتبيين بالرد على الشعوبية فى طعنهم على خطباء العرب » (٥٢) ولما كان الكتاب فى فنون النثر والشـعر وتاريخها الى أيام الجاحظ فقد وجب أن يكون هذا الشخص أديبا فى المحل الأول .

هـذا شىء ، وأما الشىء الآخر فهو أن الـكتابين ــ على رغم إختلاف موضوعيهما لأن الأول يشتمل على وصف الحيوان وطباعه وأثر البيئة فيه ، ولأن الثانى يشتمل على صورة للبيان العربى كما يرسمها متكلم أشتدت عنايته به ــ يخرج كلام الجاحظ فيهما مخرج الشمول الأدبى ، بحيث يمكن أن يزعم زاعم أن الدراسات المتعلقة بالحيوان وجدت من السهل فى اثارتها للنزعات الانسانية أن تعتمد العبارة الأدبية فضلا عن أحاديث الأدب التى كان يتعمدها شحذا لهمم القراء وتنشيطا لهم (٥٣) .

ولقد يكون « كتاب الحيوان » بعـد ذلك مظهرا من مظـاهر الخصومة بين العربية والشعوبية ــ فثمة من يتعصب للبعير ، وثمة من يتعصـب للفيل (٥٤) ــ فيلتقى من هنا بالبيان والتبيين ، لأنه اعلان عن أنشط مظهر من مظاهر الحياة العربية وهو لسانها . فالجاحظ من ثم معلم وأديب ، قرأ لأرسطو وجالينوس وفليمون وبطليموس ، وأحاط بحياة الفرس وأساطيرهم ، وعرف الكثير عن اليهود والنصارى تماما ، كما حفظ للعرب حياتهم وقصصهم وأخبارهم وتقاليدهم .

ان العلم ببساطة فى فهم الجاحظ ـ على ما يظهر فى كتابيه العظيمين ـ هو التجربة المستقاة من الذات نفسها وعن طريقها ومن الاطلاع المستديم ، ورسالة العلم ببساطة أيضا فى فلسفة الجاحظ ـ على ما يظهر فى الكتابين نفسيهما ـ هى ارسال المعلومة الى المتلقى بأى طريقة حتى ولو كانت هذه الطريقة مزج الجد بالهزل ! .

والحق الذى لا شك فيه أن أبا عثمان عمرو بن محبوب الجاحظ ـ ولم يكن بالرجل الفسيح الخيال ولا برجل العاطفة ـ ولم يجد أمامه أحدا من المعاصرين ولا من اللاحقين يشبهه ، بل ان كثيرين من السلف من أهل صنعته حاولوا أن يقلدوه فكان مصيرهم الاخفاق الذريع . ولعل الشىء الوحيد الذى يستطيع غيره من الكتاب أن يدافعوه عنه ، هو استخدام التراث العربى بلغة تحررت كثيرا من قيود الماضيين مع الارتفاع بها الى مستوى السلامة والاتقان ! .

تم الـكتاب

شروح وتعليقات

(١) يراجع تاريخ بغـداد ١٤ : ٣٥٨ ـ ٣٦٠ ، معجم الأدباء ٦ : ٥٦ وحرص الدكتور طه الحاجرى على الا يرفض أية رواية عن عام ميلاده (الجاحظ ، حيـاته وآثاره ٨٩ ط . المعارف سنة ١٩٦٣) في حين أصر شـارل بلا على أن يكون ميلاده في عام ١٦٠ (الجاحظ فى البصرة وبغداد ٩٢ ط . دار اليقظة العربية سنة ١٩٦١) . وبخصوص عروبتـه تتشابك الآراء فى دعاوى مختلفة تسلم كنانيته من الخلاف فيها ، فقد يكون كنانيا صليبة وليس فى هذا شىء ، وقد يكون كذلك بالولاء على ما يرويه يموت ابن المزرع ابن بنت أخت الجاحظ نفسـه فيما بعد ، وهنا ينبغى أن نسلم بأن من العرب الأقحاح من كان مولى للعرب الأقحاح أيضا فى الجاهلية .

(٢) النسىء تقليد جاهلى ابطله الاسلام ، وكان لفقيم حق تأخير حرمة الأشهر الحرم ـ ذى القعـدة وذى الحجة والمحرم ورجب ـ لغيرها رغبة منهم فى القتـال فيهـا ، واكتسـبت لذلك فضلا نفاه القرآن بقوله تعالى فى سورة التوبة « انما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما » .

(٣) سيرصد الجاحظ أشياء مثل هذه فى كتابه « الحيوان » راجع منه ١ : ٢٨٣ على سبيل المثال ط . الحلبى سنة ١٩٤٧ .

(٤) لم ينس الجاحظ هـذه المعركة فدونها بدقة فى كتابه السابق مع تعليق عليها يكشف عن حدة ذكائه ويقظته ٢ : ١٤ .

(٥) توفى هذا الرجل سنة ١٨٢ هـ (راجع المسعودى فى مروج الذهب ٢ : ٢٦٥ ط . البهية سنة ١٣٤٦) وكان يقال ان الجاحظ

أخذ النحو عن الأخفش والكلام عن النظام وتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد ـ معجم الأدباء ٦ : ٥٦ .

(٦) فى البيان والتبيين ١ : ١٧٤ كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة وبينه يوم مات بون بعيد ، على أنه قد كان وضع منزله فى آخر موضع الفصاحة وأول موضع العجمة .

بلق البـاب : انفتح على مصراعيه ، أدرنفق ، اندفع فيه النـاس بسرعة ، أدمج : دخله النـاس جماعات ، ألصت ولوج الدار : حاولت دخول الدار ، دلظنى : دفعنى ، الحداد : البواب ، شيخان الحى : شيوخ القبيلة ، المرية : المرأة يريد العروس ، صـتيتان : فريقان ، أرمداء ، جمع رماد يريد الرماد المتخلف من الوليمة .

(٧) المعنى فى العبارة صحيح ، ولكنه فتح لأم « تلد » .

(٨) المراهقات : اللائى خدرن ومنعن من اللعب مع الصبيان .

(٩) راجع الجاحظ ، حيـاته وآثاره للدكتور طه الحاجرى ١٥٢ ط . المعارف .

(١٠) راجع القصة بالتفصيل فى العقد الفريد ١ : ٢٦٦ ط . لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٤٨ .

(١١) كان ذلك عام ١٨١ .

(١٢) هذا مثل يضرب للرجل تكون فيه التى يحمدها من نفسه ولا يشعر بما فى الناس من الفضائل ، وأصله أن الرجل اذا أجرى فرسه فى مكان لا مسابق له فيه يفرح بما يرى من فرسه .

(١٣) راجع محمد باقر الموسوى الأصفهانى فى روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات ٤٣ ط . ايران سنة ١٣٠٧ .

(١٤) راجع ابن حزم فى الفصل ٥ : ٧٥ .

(١٥) تحسن مراجعة الحيوان ٢ : ٢٢٨ ، ٢٣٩ ، ٢٣٠ ـ ٤ : ٣٢٠ ـ ٥ : ٢٤٨ ـ ٦ : ٢٩٩ .

(١٦) يشير الى قوله :

جالست يوما أبانا لا در در ابان
ونحن حضر رواق الأمير بالنهروان

راجع الحيوان ٤ : ٤٤٨ .

(١٧) حجج النبوة ص ١٤٧ ط . القاهرة سنة ١٩٣٣ .

(١٨) مقالات الاسلاميين ١٩٠ ، ١٩١ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ .

(١٩) روى أنه قيل للجماز : رأيناك فى دهليز فلان وبين يديك قصعة وأنت تأكل ، فمن أى شىء كانت القصعة وأى شىء فيها ؟ قال : قىء كلب فى قحف خنزير (البخلاء ٦٤) .

(٢٠) الحياة الأدبية فى البصرة للمؤلف ٩٦ ط . دار الفكر بدمشق ١٩٦١ ومقالات الاسلاميين ١ : ٧١ ـ ٧٤ .

(٢١) فى كتاب الجاحظ « القول فى البغال » ويسمى أيضا « البغل » الذى يرجح أنه ذيل للحيوان ما يدل على أن الجاحظ كان سنة ١٩٩ بالنهروان عندما كان الحسن بن سهل قادما من خراسان ـ راجع الجاحظ ، حياته وآثاره ٢١٤ .

(٢٢) راجع الحيوان ٢ : ١٩١ .

(٢٣) الخبر بالتفصيل فى الأغانى ٩ : ١١٨ ط . دار الفكر ببيروت سنة ١٩٥٥ .

(٢٤) البيان والتبيين ٣ : ١٠٤ والقزاكند فارسية من قز أى حرير ومن آكند أو آغند أى محشو بتقدير قبا أى قباء أو ثوب ، فيكون المعنى ثوبا محشوا قزا أى مبطنا به .

(٢٥) يريد أهل السنة ، وفى الحديث الشريف « ٠٠ وان أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلها فى النار الا واحدة وهى الجماعة » الفرق بين الفرق لأبى منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادى ١٠ ط . مكتب نشر الثقافة الاسلامية سنة ١٩٤٨ .

(٢٦) هذا رأى أساسى من آراء المعتزلة نجده عند الحسن البصرى أولا وهو شيخهم وأول من قال بالقدر ، وضمنه بشر ابن المعتمر أرجوزته المشهورة فقال « يبدأ من عمرو ومن معاوية » .

(٢٧) أى الأغمار والنشء الصغار ويراد بهم أهل الحديث السنيين الذين نبتوا أيام الجاحظ ونادوا بالاحتجاج لمعاوية ، ثم اشتغلوا بالسياسة حتى هددوا عرش الخلافة ، فأمر المأمون بالتنكيل بهم .

(٢٨) أشار الى هذه الكتب فى الحيوان عندما قال فى مقدمته : « وعبتنى بكتات القحطانية وكتاب العدنانية فى الرد على القحطانية، وزعمت أنى تجاوزت فيه حد الحمية الى حد العصبية وأنى لم أصل الى تفضيل العدنانية الا بتنقص القحطانية . وعبتنى بكتاب العرب والموالى ، وزعمت أنى بخست الموالى حقوقهم ، كما أنى أعطيت العرب ما ليس لهم » راجع المقدمة ١ : ٤ ، ٥ .

(٢٩) يذكره ياقوت فى معجم الأدباء ٦ : ٧٧ بكتاب « التسوية بين العرب والعجم » وذكر أيضا كتاب « فخر القحطانية والعدنانية » .

(٣٠) تكلم فى « الصرحاء والهجناء » عن السودان أشباه الخلص وقصد بهم العرب .

(٣١) المقصود ثورة العبيد التى اشتعلت نارها فى السادس والعشرين من رمضان سنة ٢٥٥/٨٦٩ واستمرت أربعة عشر عاما . وكان عامة الثوار من زنج الصومال وزنجبار الذين عملوا فى سهول

البصرة ، ورأسهم « بهبوذ » الفارسى الذى تسمى باسم محمد ابن على زاعما أنه عربى قح .

(٣٢) ذكرها ياقوت باسم كتاب المغنين مرة وأخرى بذلك الاسم ٦ : ٧٧ ، ٧٨ ونشرها عبد السلام هارون باسم « كتاب القيان » ــ رسائل الجاحظ ٢ : ١٤٣ ط . الخانجى سنة ١٩٦٥ .

(٣٣) ذكر ياقوت فى قائمة كتب الجاحظ « كتاب النساء » مع « كتاب الجوارى » ــ معجم الأدباء ٦ : ٧٦ ، ٧٧ ويبدو أنه أراد أن يجعله جزءا من أجزاء الحيوان لأنه وعد أن يتكلم فى « فصل ما بين الذكورة والاناث » وقارىء الكتاب لا يجده فكأنه شرع فيه فلما طال جعله مستقلا ، وليس فى أيدينا من هـذا الكتاب الا بقايا مضطربة على ما نرى فى هامش الكامل للمبرد ١ : ١٣٠ ــ ١٦٦ ط . مصر سنة ١٣٢٣ ويرى الدكتور طه الحاجرى أن هذا الكتاب فى حقيقته أول كتاب عن الحب فى العربية وليس كتاب الزهرة لداود الظاهرى ــ الجاحظ ، حياته وآثاره ٤٣٨ .

(٣٤) العقد الفريد ٥ : ١٢١ ط . لجنة التـأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٨ وتاريخ أبى الفدا ٢ : ٣٥ ط . القسطنطينية سنة ١٢٨٦ .

(٣٥) حاول أبو منصور البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق » أن يلخص الجاحظية فى الاعتزال مشنعا منددا ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٣٦) اعتمدنا على مجهود الدكتور طه الحاجرى فى حصر انتاج هذه الفترة للجاحظ ــ راجع الجاحظ ، حيـاته وآثاره ٣٢١ وما بعدها .

(٣٧) تسمى أيضا « كتاب الآداب » كما جاء فى العقد الفريد ٣ : ٢٨ وينبغى أن نقرر هنا أن اعجاب الجاحظ بابن المقفع ــ الذى رأيناه منذ قديم ــ ظهر فيها ليس فى بعض الصياغات فحسب على الرغم من أن منهج ابن المقفع اعتمد الرواية فى حين اعتمد الجاحظ

النظر والاستقصاء ، وانما أيضا فى وقوعهما على المحفوظ من كلام الناس وتصفحهما عقول العاملين بأخلاق النبيين وذوى الحكمة من الماضين والباقين ، هذا مع ملاحظة أن الجاحظ كان يبدو فى بعض الأحيان فى موقف المعارض لكثير مما ذهب اليه ابن المقفع .

(٣٨) فى مروج الذهب ٢ : ٣٦٩ ، ٣٩٤ أن أحدا ممن سلف من خلفاء بنى العباس لم يظهر فى مجلسه من العبث والهزل والمضاحك ما أظهره المتوكل ، كما قيل انه لم تكن النفقات فى عصر ما مثلها فى أيام المتوكل . وقد أنفق على الهارونى والجعفرى أكثر من مائة ألف ألف درهم مع الاكثار من الموالى والجند الشاكرية ، ومات وفى بيوت المال اربعة آلاف ألف دينار وسبعة آلاف ألف درهم . ولا يعلم أحد فى صناعته فى جد ولا هزل الا وقد حظى بمال موفور منه ، وكان من أبرز شعراء عصره البحترى والخليع وعلى بن الجهم .

(٣٩) كثيرا ما يختلط الأمر على الدارسين ـ كعبد السلام هارون ومحمد خفاجى ـ فلا يفرقون بين أبى الحسن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان وزير المتوكل والمعتمد وبين الفتح بن خاقان بن أحمد أو ابن غرطوج الذى كان أبوه أحد قواد المعتصم ، ونشأ هو فى القصر حتى أنزله المتوكل منزلة الأخ . وقد صرع ليلة هوجم المتوكل ، ووصف المسعودى ٢ : ٣٩٣ مقتلهما وصفا مؤثرا ، ومدحه البحترى بشعر كثير ، واعترف المبرد بفضله عليه ، وذكر أبو هفان أنه أحد ثلاثة اهتموا بالكتب والآخران الجاحظ وعلى ابن يحيى المنجم الأديب المتطبب .

(٤٠) راجع رسائل الجاحظ ١ : ٣٨١ وفى الرسالة يقول الجاحظ « فخذ يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كل الأدب فانك ان أفردتهم بشىء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوا » وهذا يبين بسهولة مضمون الرسالة .

(٤١) كتب في هذه الأثناء « كتاب الرد على النصارى » و « كتاب الرد على اليهود » .

(٤٢) الرسالة فى كتاب رسائل الجاحظ ١ : ٥ بعنوان « مناقب الترك » وهى قسمان أولهما كتبه الجاحظ أيام المتوكل ، وثانيهما كتبه أيام المعتصم ، ولكنه ضم الجزء الثانى الى الجزء الأول وقدمه الى الفتح بن خاقان قائلا ان الجزء الثانى لم يتح له أن يصل الى المعتصم « لأسباب يطول شرحها » .

(٤٣) القصيدة كاملة فى الرسائل ١ : ٣٢٥ وقد اختار منها ياقوت أبياتا تختلف فى صياغتها عما أثبت فى قصيدة الرسائل — معجم الأدباء ٦ : ٧٩ واكتفيت أنا بصنيع ياقوت .

(٤٤) أنظر له « رسالة فى مدح النبيذ » مع أنه كتب « رسالة فى ذم النبيذ » وله أيضا « الشارب والمشروب » — معجم الأدباء ٥ : ٧٧ .

(٤٥) كتاب البخلاء أوضح صورة لذلك .

(٤٦) راجع له « رسالة الجوارى » و « كتاب الأنس والسلوة » و « كتاب المقينين والغناء والصنعة » .

(٤٧) راجع ياقوت فى معجم الأدباء ٦ : ٧٥ .

(٤٨) فى الحيوان عن محاولة أحد المعاصرين تعليم الذئب ٧ : ٢٥٣ أن الخصى العبدى الفقيه حدثه عن ذلك « فى الأيام التى قام بها أمير المؤمنين المتوكل على الله » أى أن كتاب الحيوان وضع أو شرع فى وضعه خلال السنوات التسع الأخيرة .

(٤٩) راجع الحيوان ٤ : ٢٠٨ .

(٥٠) البيان والتبيين ١ : ١٩٥ ط . التجارية سنة ١٩٤٧ .

(٥١) السابق ١ : ٢٩ ، ٣٠ .

(٥٢) السابق ٢ : ٣ .

(٥٣) كان الجاحظ يقول « متى خرج ـ يريد القارىء ـ من آى القرآن الى الأثر ومتى خرج من أثر صار الى خبر ، ثم يخرج من الخبر الى الشعر ومن الشعر الى نوادر ، ومن النوادر الى حكم عقلية ومقاييس سداد ، ثم لا يترك هذا الباب ولعله يكون أثقل والملال اليه أسرع حتى يفضى الى مزح وفكاهة والى سـخف وخرافة ولست أراه سخفا » .

(٥٤) يمكن أن نجعل المناظرة فى الفأر والسنور ردا من العرب على المجوس ، لأن زرادشت ـ على ما أورد الجاحـظ فى الجزء الرابع من الحيوان ـ يزعم أن الفأرة من خلق الله وأن السنور من خلق أهرمن أو أبليس : ويقول عن غانم العبدى الرفيع ٧ : ٣٥ « فمن حمقه أنه هندى وهو يتعصب على الفيل » اذ المفروض ن يقف فى صفه ! .

فهرست

الصفحة

الباب الأول
البحث عن طريق

الصفحة

البـــاب الثـــانى

شيخ الـكتاب

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ – محمد عبده	عباس العقاد
٢ – المعتمد بن عباد	على أدهم
٣ – جابر بن حيان	د . زكى نجيب محمود
٤ – عبد الرحمن بن خلدون ...	د . على عبد الواحد وافى
٥ – ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ – معاوية	ابراهم الابيارى
٧ – سيد درويش	د . محمد أحمد الحفنى
٨ – عبد القاهر الجرجانى	د . أحمد بدوى
٩ – عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠ – عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس
١١ – مالك	أمين الخولى
١٢ – القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ – الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ – الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ – ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ – المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى
١٧ – الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ – الأصمعى	د . أحمد كمال زكى
١٩ – زكريا أحمد	صبرى أبو المجد
٢٠ – قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ – شكيب أرسلان	أحمد الشرباصى
٢٢ – ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ – أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب
٢٤ – عبد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ – الخنساء	محمد جابر الحينى
٢٦ – الكندى	د . أحمد فؤاد الاهوانى
٢٧ – الصاحب بن عباد	د . بدوى طبانه
٢٨ – الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ – أحمد زكى	أنور الجندى
٣٠ – حسان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين

اسم الكتاب		المؤلف
٣١ ـ المثنى بن حارثه الشيبانى	...	عقيد محمد فرج
٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى	...	عبد القادر أحمد
٣٣ ـ رشيد رضا	... ...	د . ابراهيم أحمد العدوى
٣٤ ـ اسحاق الموصلى	... ...	د . محمود أحمد الحفنى
٣٥ ـ أبو حيان التوحيدى	.. ...	د . زكريا ابراهيم
٣٦ ـ ابن المعتز العباسى	... ...	د . أحمد امام زكى
٣٧ ـ الزهاوى	... ...	د . ماهر حسن فهمى
٣٨ ـ أبو العلاء المعرى	... ...	د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ ـ أحمد لطفى السيد	.. ...	د . حسين فوزى النجار
٤٠ ـ الجوينى امام الحرمين	...	د . فوقية حسين
٤١ ـ صلاح الدين الأيوبى	... ...	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ـ عبد الله فكرى	... ...	محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ـ عبد الله بن الزبير	... ...	د . على حسنى الخربوطلى
٤٤ ـ عبد العزيز جاويش	... ...	أنور الجندى
٤٥ ـ ابن رشيد القيروانى	.. ...	عبد الرءوف مخلوف
٤٦ ـ محمد عبد الملك الزيات	...	محمود خالد الهجرسى
٤٧ ـ حفنى ناصف	... ...	محمود غنيم
٤٨ ـ أحمد بن طولون	... ...	د . سيدة اسماعيل الكاشف
٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى	.. ...	أحمد سعيد الدمرداش
٥٠ ـ أحمد فارس الشدياق	... ...	محمد عبد الغنى حسن
٥١ ـ المهدى العباسى	... .	د . على حسنى الخربوطلى
٥٢ ـ الأشرف قانصوه الغورى	...	د . محمود رزق سليم
٥٣ ـ رفاعه الطهطاوى	... ...	د . حسين فوزى النجار
٥٤ ـ زرياب	... ...	د . محمود أحمد الحفنى
٥٥ ـ الكندى « المؤرخ »	... ...	د . حسن أحمد محمود
٥٦ ـ ابن حزم الأندلسى	... ...	د . زكريا ابراهيم
٥٧ ـ ابن النفيس	... ...	د . بول غليونجى
٥٨ ـ السيد أحمد البدوى	... ...	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ ـ المأمون	... ...	د . محمد مصطفى هداره
٦٠ ـ المقرى	... ...	محمد عبد الغنى حسن
٦١ ـ جمال الدين الأفغانى	.. ...	عبد الرحمن الرافعى
٦٢ ـ الجاحظ ...	... ...	د . أحمد فهمى زكى